وعي الزمن التاريخي

ومستقبل الشخصية العربية

في فكر حافظ الجمالي

فايز قوصرة

عنوان المؤلف : سوريا – إدلب – الطبعة الإلكترونية ٢٠١٩م

المقدمة

في حياة كل مفكر ، و في أسلوب كل أديب ، لمسات ممن سبقه ، فلا يمكن للمفكر الذي يعيش لحظات تاريخية في حياة أمته ، دون معايشتها بفكره و نقده التنويري ، و أسلوبه التعبيري ، النافذ إلى هذا الواقع ، و الذي هو في جوهره استمرار للماضي ، و لكن المشكل الأكبر أن يظل هذا المفكر (يجتر) الماضي دون تجاوزه ، يتغنى بالأمجاد دون صنعها .. و المفكر التنويري صاحب هذه المهمة الصعبة أولى مهامه هي جرأته في (عرض الإشكال أو المشكل) بكل حرية ناقدة ليساهم في تجاوز هذا الواقع الجامد أو المجمد بإرادتنا ثم يعطي الحل الأنسب (و ما أقل الحلول !) . و هكذا كان رواد النهضة العربية أصحاب الفكر التنويري كـ رفاعة الطهطاوي و جمال الدين الأفغاني و خير الدين التونسي و محمد عبده و محمد كرد علي و زكي نجيب محمود و قسطنطين زريق و حسن حنفي و غيرهم ، ممن أرادوا الخير لأمتهم ، في تجاوز واقعها ، و السعي لنهضتها .. و من المتأخرين الذين ساهموا في الدعوة للنهضة العربية أستاذنا د . حافظ الجمالي [1] الذي أعتبره مفكراً شغلته هموم أمته و ترديها بعد نهوضها ، و آلمه أن تكون أمته على هامش التاريخ بعد أن كانت صانعة التاريخ .. فأراد أن يكون الطبيب الذي يداوي جرحها التاريخي .. فهل وفّق ؟

هذا ما أردناه في هذا الكتاب ليكون مقدمة لكل باحث عربي في واقع أمته ، علّه يجد بعض هذا الدواء في نقده الذي سيظل يشيد بمن سبقه ..

و يحضرني ناقد أدبي معروف هو الدكتور محي الدين صبحي ، المقل في نقد الفكر ، و لكنه بارع في تشخيص الداء و إعطاء الدواء ، و هو لو تابع تشخيصه لكان أحد السباقين بين المفكرين العرب ، و لكنه مقل جداً في مناحي الفكر كما سبق . و في مقال له في مجلة العربي العدد ٤٤٤ نوفمبر ١٩٩٥ بعنوان وعي التخلف .. لماذا نعرف ما لا نريد و لا نعرف ما نريد ؟ يلوم المفكرين العرب الذين يعلقون على مشجب الاستعمار كل نواحي التقصير العربي .. و يؤكد أنه لو استمر العرب على تضامنهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ لحصلوا على أكثر مما يريدون كما أن مسؤولية الاستعمار عن تدهور الوضع العربي محدودة و علينا البحث عن مسؤولين آخرين .. كما أن الوعي العربي السائد هو وعي التخلف . يقدم صبحي فرضية أن العقل العربي الحديث ، من رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر إلى مفكري اليوم في آخر القرن العشرين ، هو عقل يفرز وعياً سلبياً يعرف ما لا يريد و يعجز عن تحقيق ما يريد .. و كل خطوة [حضارية] تحتاج إلى معرفة و خبرة و ممارسة و خلق ظروف قائمة لكل واحدة بذاتها .

علينا أن نفرق بين وعي التخلف و تخلف الوعي . فوعي التخلف يصدر عن بنية فكرية اجتماعية اقتصادية متخلفة . إنه تخلف يعي العالم بطريقته و وفق معطياته ... كما أننا نجد تخلف الوعي هو وعي جزئي يتخلف عن وعي التقدم بفارق كمي يمكن قياسه و تحديد أمان وجوده و محاصرته و معالجته . ثم يخلص إلى القول : إنه صار لدينا ثلاثة أنواع من الوعي . الأول و الثاني وعيان بنيويان يشملان كل نواحي المجتمع و يطبعانه بطابعها . أما الوعي الثالث فهو نسبي عابر يمكن توسيعه و يمكن القضاء عليه بحسب الظروف و استعداد البيئة . و يقدم شواهد حية على فرضيته كتعدد الأحزاب المفرط في مجتمعنا و تكاثر الحروب العربية – العربية .. أما الحل برأي صبحي في أنه لا بد من أن ننبذ وعي التخلف . و هذا لا يكون إلا بالخروج من الواقع جملة . و من ثم بناء واقع جديد بكل تفاصيله . الخروج من الواقع يكون بتسليط النقد العقلاني على كل جوانب الواقع بتحديد أبرز ظواهره و تشخيصها و الرجوع إلى تاريخ نشوئها و تطورها لمعرفة الوظيفة التي أدتها كل ظاهرة في حياتنا المتخلفة ... و إن العقل النقدي عقل جماعي بالدرجة الأولى .. فعلينا بتعميم العقل النقدي ليخلق وعياً جماعياً قادراً على الخروج من وعي التخلف و وضع الأسس لوعي التقدم .

و يحضرني كشرقي عشت في الشرق و نهلت من ثقافته ، التي لا تخلو من أهمية الوقت في قولهم " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك " أو قوله (ص) " بورك لأمتي في بواكيرها " و حكمتهم المدرسية اليومية " لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد " نجد في ذات التراث قولاً و سلوكاً ما يناقضه " العجلة من الشيطان " ، " لسه بدري " ، " طيب لنشوف " ، " بدبرها الله " ، " طول بالك " و حين عشت في الغرب و كذلك تزوجت من غربية – رحمها الله – عرفت أنهم يجمعون القول مع العمل ، و لحظة الفراغ إن وجدت فسيمضونها في حديث مفيد أو مطالعة كتاب ، فحماتي التي عاشت الحرب العالمية الثانية كانت مشتركة في صحيفة يومية و تشغلها أحداث العالم أو المجتمع ، أما النساء – عندنا – و للأسف فمازلن يزرن بعضهن لتضييع الوقت ،و كأن الزمن ليس مقياساً حضارياً عندنا ، مع أن الصلاة لم تشرع في حكمتها كصلوات خمس في أوقات محددة ، إلا لضبط آلية النفس المؤمنة ، كي تصنع الحضارة لا أن تكون على هامشها .

إدلب –٢٠١٠م **فايز قوصرة**

من الغريب أن الكثير من الأدباء يضعون أبحاثاً بعنوان (أدباء سوريون) و لا نجد من يكتب بحثاً بعنوان (مفكرون عرب سوريون) هل لأننا قد فقدناهم أم هم غير موجودين ؟ لا هذا و لا

ذاك ، فهم بيننا يدلون بدلوهم ، و يدافعون عن آرائهم ، و لكن حركة النقد الفكري عندنا في حال تراجع – و للأسف – فهل السبب عدم وجود مؤسسات تتبنى أطروحاتهم ، أم أن فكرهم لا يستحق التقدير منا ؟ و لعلنا في هذه الدراسة نوفي حق أستاذنا الدكتور حافظ الجمالي بعضاً من حقه علينا في تقديم فكره النقدي لحضارتنا و شخصيتنا ، فيكون عملنا هو نقد النقد و ليكون في ستة محاور ، وجدتها في أبحاث الجمالي ، و التي ظل يدور في فلكها ، و يعيد قراءتها ، ثم صياغتها بشكل متكرر ، فأوقعني في اختيار الاستشهاد الأنسب ، و الحل الأوفق ، و الرؤيا المستقبلية التي سيصل إليها ، فاضطررت إلى " حفر " نصوصه و جمع (مجوهرات) أفكاره التي ظل يستجرها غير مرة ، حتى شعرت بالتعب بعد كل بحث يقدمه لنا ، و لأخلص إلى القول مخاطباً نفسي :ماذا يريد أستاذنا الجليل د . حافظ الجمالي ؟!

لقد أجاب بنفسه : إنه يريد إنشاء صورة حياة جديدة لأنفسنا ، لنحياها ، ليس كفرد فقط ، بل كأمة عظيمة الشأن ، أدت رسالتها في وحدة قومية فيها عصارة كل القيم الروحية السابقة ، و مدت وجودها خارج حدودها و يطرح السؤال : لماذا تخلفنا بعد تقدم ؟ سؤال هو منطلق له و لكن جوابه بقوله : لكن منطلقاتي في الجواب ، لن تكون بأية حال إلا منطلقات موضوعية ... و هذا الحاضر هو ابن الماضي .. و لا يعلل إلا بأحداث الماضي ، و لكنه معقد جداً ، و أقف شخصياً على العامل النفسي دون غيره .. و هكذا أجدني محمولاً على قراءة خاصة للتاريخ أتلمس العوامل النفسية .. و ليست المنظومة العقائدية هي السبب إلى التخلف بل في الإنسان[(١)]

١ – **الزمن** : إن ضيق الأبعاد الزمنية يجعلنا من أقل الشعوب استفادة من تجارب الماضي و عبره ، و يجعل الفرد منا يكرر إلى ما لا نهاية تجارب تكرر إخفاقها ألف مرة ، إن ضعف الشعور بالزمن ، و الوقوف على الحاضر أدى إلى التركيز على الذات ، و أصبح الماضي يعنينا فيما يفرقنا عن بعضنا ، و اختلاف معاوية و علي ما يزال حتى الآن يقسم العالم

(١) الجمالي : حول ص ٧ – ٢٠

الإسلامي ! إننا نعيش بلهفة متصلة إلى الاختلاف .. إن كل حاضر لدينا هو نفي للماضي ، و انغلاق على المستقبل ، كأن اللحظة الحاضرة هي كل الوجود في عينينا .. و كأن المستقبل لن يوجد أبداً .. إن هذا النوع من العمى العقلي عن امتداد الزمان في الماضي و الحاضر ، هو الذي يجعلنا أعجز الناس عن الاستفادة من دروس الماضي ، و أقلهم حيطة للمستقبل)). و يعتبر الجمالي معالجة موضوعه فيما يسميه " بالآنية و الحضارة " بقوله " و أقصد بالآنية هذا

النوع من التفكير المختصر الأبعاد ، المسمّر في الحاضر ، المثبت على إرواء الحاجات الآنية ، و الذي يلوح لنا و كأنه ينسى أبعاد الزمن الطبيعية ، كالماضي و المستقبل ، و يقف من ذلك كله على اللحظة الحاضرة " . و أعني بالحضارة قدرة الإنسان على إخضاع العالم المادي لإرادته ، و قدرته بعد ذلك على التحكم في مصيره ، أو لم يقل أحد أباطرة الرومان قديماً ، إني سيد نفسي ، كما أنا سيد العالم ؟ و يعود الجمالي إلى لومنا في أننا لا نخطط جدياً لمستقبل حضارتنا ، و لا نؤهل أجيالنا لبناء هذه الحضارة .. و أما مستوى التطور ، فهو زيادة نوعية .. إن هناك (خطأ ما) يتكرر بانتظام أدى إلى هذه النتائج لا يجهل أحد كيف انتقلت اليابان إلى أرقى الأمم في خمسين عاماً و الصين في ثلاثين – أربعين عاماً ، بينما مصر منذ ١٨٠٠ لم نلاحظ أنها أرقى حضارياً من العراق أو سوريا . و يعتبر الجمالي " الحضارة بالنسبة إلينا هي قضية حياة أو موت أولاً ، مادام هناك غازٍ اسمه (إسرائيل) و نصارع عدونا بمستواه الحضاري ، و إذا كان الجمالي – و كما سيرد – يحلل شخصيتنا بطابعها المتأصل في الأنا ، فالحل هو في التربية – و هو في الأصل أستاذ جامعي في التربية – يعتمدها في حساباته لتربية الغيرية ، و تغليبها على الأنانية . حقاً فإننا نتساءل عن المدة الزمنية الكافية لكي تنشأ الأجيال الجديدة على اللا أنا دون الأنا ؟

إذن هو مرة أخرى يلتقي مع الزمن الماضي ، و الزمن الحاضر ، لعلاج ما ترسخ من الزمن عبر التربية و يلومنا لأننا نؤمن بالحاضر " و لسنا ندري حقاً ما الذي جعل من " الحاضر " إلهاً يعبد أول ما يعبد ، و من يُعبد ، على حين أن الدين الذي نعتنقه يذكرنا دوماً بيوم الآخرة " و هذا القول غير صحيح فغالبيتنا غير راضين عن الحاضر ، و تتوق إلى الماضي ، و ليس كما يقول " ظل التاريخ العربي ملتصقاً بالحاضر أكبر الالتصاق حتى لتصبح كلمة ابن خلدون في وصفه للمجتمع المصري بعد إقامته فيه " فوجدت قوماً قد فرغوا من أمر الآخرة " و سيقول كذلك عن البلدان العربية الأخرى . و لا أتفق مع الجمالي في هذا التحليل عن شخصيتنا ، فنحن أمة سلف / الماضي و ليس المستقبل كقولنا بكرا بدبرها الله !! و كذلك هناك تيار من جيلنا يريد المستقبل ، و لكنه مكبل بأغلال الماضي و سلفيته ، و باب الانفتاح ونحن حيارى في كيفية ولوجه ، كذلك فإننا نتفق معه في قوله " إن الدولة البانية للحضارة لا تنشأ من القبيلة أو مجموعها ، إلا بتطوير كبير عميق ، لمؤسسات القبيلة .. على الزمان المتجانس زماناً مثلث الأبعاد .. و العصبية تصبح قومية لا تتركز على ذاتها بل تتركز على قيم عليا ، تتسع لاحتواء كل الإنسانية ، و على الأفق العربي أن ينفتح لآفاق أوسع .. و على السلطة المحلية ، الضيقة

المحدودة ، أن تفسح المجال لسلطة كبرى ، لتكون لها بمثابة الناظم " ما طرحه هنا أستاذنا الجمالي ألا ينطبق مبدئياً على الاتحاد الأوروبي مؤخراً !! و أننا لا نستطيع تحقيق الوحدة المنشودة لوجود مثل هذا الواقع !! هاهو يستشهد بحدث تاريخي هام رسالة الإسلام التي أنستهم الزمن الحاضر ، من تدافع بعضهم لبعض ، إلى نشر رسالة فيها القيم لإنشاء حضارة ، و أما التراجع فسببه القيادات الهابطة التي تسلمت زمام الأمر .. و يعطي مثلاً على الجهاد الذي كان وسيلة لتجاوز الحاضر إلى مستقبل يقع وراءه ، و انفتاح الزمن على كل أبعاده .. و تأكيد الإسلام على الجماعة في كل شيء ، هي وسائل لخروج الإنسان من ذاته و الانفتاح على الآخرين ، بل يشن هجوماً على عدم تأريخ أحداث تراثنا ، فما من إنسان يعرف في أي عام كان عنترة أو طرفة و هكذا ، بل يستشهد بحدث معاصر عرفه بالعودة إلى مصدر أجنبي !!! و كذلك بيانات و نشرات لا تتضمن التاريخ مما يشير إلى أن في العربي ميل إلى أن يعيش خارج إطار التاريخ ، أويظن أن يومه الحاضر هو كل التاريخ ؟!. ثم يتابع تحليلاته ليقف عند اللحظة التي بدأ فيها المجد العربي يتوقف ، و يتجمد ، إذ وجدها في ولاية سليمان بن عبد الملك (٧١٥ – ٧١٧ م) بسلوكه الأناني ، و شدة التركيز على الذات عنده ، أفيكون عجيباً ألا يفتح الله على عهد سليمان أي بلد جديدة . من الواضح أن انهيار الأمويين لم يتم إلا بعد أن عادت الجاهلية مرة أخرى فغلبت على ما عداها من صور السلوك ! "

من المؤكد أن هبوط المثل العليا على يد آخر الخلفاء الأمويين ، و ضيعة الإنسان العربي ضيعة نسبية أولاً في العهد العباسي الأول ، و ضيعة كاملة فيما بعده مع المعتصم ، هو الذي جعل العرب يضعفون أكثر فأكثر ، بحيث تكون كل مجموعة صغيرة منهم دولة على حدة ، فلا عجب – و الكلام للجمالي – أن يعود العربي إلى الانغلاق على الذات ، و الانشغال بالتوافه ، و إهمال عظائم الأمور بل العسف اتسع ، و الضياع نما و استفحل ، و انقلب الإنسان الغاية إلى الإنسان الوسيلة " في ملاحظاته هذه نتفق " لقد كان العربي في الجاهلية فرداً في قبيلة ، بلا أفق ، و كان زمانه يمضي على وتيرة واحدة ، و من هنا لم يعرف العرب التاريخ ، و لا التقويم بأكثر من أيام الأسبوع و أشهر السنة . فلما جاءت المنظومة العقائدية الجديدة ، في ثوب الإسلام ، انتفت الفردية إلى درجة كبيرة ، و بدأ التاريخ العربي و بدأت رسالته الحضارية ، و أخذت قيمه تعم العالم ، و أصبحت منزلته ذات كرامة ... لكن فيما بعد عادت الجاهلية ، بثوب آخر في تضاؤل القيم ، و اشتداد عسف السلطان ، و تمكن الخوف من النفوس و عاد العربي من جديد قيمة مضيعة ، أصبح تاريخه من جديد شبهاً بتاريخ الجاهلية .

يعود أستاذنا الفاضل حافظ الجمالي إلى الزمن التاريخي في أكثر من بحث و مقال ، و في كل مناسبة ، ليتوصل إلى النتيجة التالية في سؤاله " من نحن إذن ؟ أولئك الذين كانوا يبنون ، و يهدم تاريخهم ما بنوا ، أم نحن أولئك الذين كانوا يهدمون فقط .. و لماذا كنا نبني دوماً ، و دوماً كنا نهدم ما نبني .. ألا يذكرنا وضعنا العربي العام اليوم بعهدنا الجاهلي الذي سبق ظهور الإسلام مباشرة " إن نتيجته هذه لا نتفق معه فيها ، و من غير المقبول اليوم مقارنة عصرنا بعصر الجاهلية و الذي يمثل مجتمعنا ضيقاً في حيزه الجغرافي بالمقارنة مع المجتمع الغربي ككل اليوم ، و ليس قولنا علمياً بتعميم صفة الجاهلية على مجتمعاتنا اليوم ، فهذا المصطلح خاص في زمنه و وقته ، و نحن غير علميين في تعميمنا له إلى اليوم !

٢ – **التاريخ** : الزمن يحتوى في التاريخ ، و التاريخ يستعيد الزمن ، فهل نحن كذلك ؟! سؤال كنت أطرحه على نفسي دائماً حين بدأت أعشق التاريخ ، فهل هو طوق حديدي يأسرنا ، أم هو أداة نستطيع الانطلاق منها .. و هل تاريخنا قدم لنا بصورته الحقيقية أم هو مبالغ فيه ؟! عدت إلى أستاذنا حافظ الجمالي لعلي أجد الجواب عنده ، و يشفى شوقي إلى الجواب الموضوعي . هو أي الجمالي وجد في قراءته للتاريخ " أن العرب تخلفوا بعد التقدم ، و أنهم يغيبون عن التاريخ ، بعد أن كانوا يملؤونه زهواً و ألقاً .. و هو لا يقرأ التاريخ كحدث ، و إنما يقرأ الأحداث في معناها ليلتمس منها دلالة معينة على طباع الأمة ، و صور سلوكها و نوعية ردودها على الأحداث التي تحيط بها ، لتكون له شخصية هذه الأمة " و التي يهمه معرفتها كعالم النفس يقرأ التاريخ موضوعياً لتساعده على نمو " الوعي العربي " و هو يؤكد أنه " لا بد للعربي من قراءة تاريخه و ملاحظة خصائص الشخصية العربية كي يلاحظ النقاط التالية :

١ – لو قارنا تاريخنا العربي خلال السنين الألف مع تاريخ بعض الدول الأوروبية لوجدنا أنها بدأت إقطاعيات متناثرة و مجزأة ، لتتطور إلى ملكية ثم إلى دول موحدة ، و أن العرب أنشؤوا دولتهم الموحدة منذ ظهور الإسلام ، ثم لتنقسم إلى ممالك .

٢ – الأمة العربية عرفت دور صعود سريع جداً ، بهرت هي به ، كما بهرت العالم ، غير أنها مالبثت بالتراجع " و هو – أي الجمالي – يعود للقول " إن العرب بعد العهد الأموي أخذوا يتراجعون سياسياً في مرحلة ، و حضارياً في مرحلة ثانية .

٣ – الأمة العربية ظلت على طول التاريخ ، تجابه مواقفها الحرجة جداً ، بسلوك غير متلائم و لا معقول . مستشهداً أستاذنا الجمالي في تكرار ثلاثة مواقف بالغة الخطورة : أولها الزحف الإسباني على الأندلس ، و الثاني هو الحروب الصليبية ، و الثالث هو الغزو الصهيوني و

الغريب أننا نشتت في المواقف الثلاثة ، نشتت القوى بدلاً من جمعها ، و نلهي أنفسنا بمعارك جانبية .

٤ – و آخر ملاحظة يقولها – الجمالي – هو أن صور الحكم في البلاد العربية ظلت أوامر و زواجر ، أي سلطة تنفيذية ، و بقيت بلا مؤسسات عامة ، و أما تطبيق الآية الكريمة " و أمرهم شورى بينهم " ظلت نظرية محضة ، لم تنظم بأي قانون ، أو دستور ، في حين دول أقدم ، اليونان و الرومان و بيزنطة عرفت الدساتير و القوانين ، و قد أصبح الحكم في أغلب الدول العربية هو في السلطة التنفيذية وحدها . بعد هذا العرض التحليلي لتاريخنا ، يخلص الجمالي إلى الحكم التالي " كل ذلك يعني أن الشعب العربي قلما حكم بعقلية تحسن التخطيط للمستقبل و تخضع التاريخ لإرادتها و تسيطر عليه و ما صور الحكم العربي [السابقة] التي ظلت تحكم بوحي الساعة التي فيها ، متأثرة بمصالحها الآنية ، كما أن الزمن كله عندها هو اللحظة الحاضرة . في المحور السابق الزمن و المحور الثاني التاريخ ، هما عند الجمالي قد تلاقيا في أن كلاً منهما صورة للآخر ، و أنه كتتمة لمنطلقاته ، في أولاها أنه كثيراً ما يستند في أبحاثه إلى التاريخ العربي و الذي وجده يكثر بالتقلبات و الانتفاضات العنيفة على طول التاريخ ، و في كل مكان ؟ و لماذا اغتنى الفقه أكبر الغنى ، و لكنه لم ينتج دستوراً و لا قانوناً ؟ و لماذا كان الحكم في الغالب حكم الهوى ، و المصلحة الآنية لا حكم القانون و المصلحة العامة و النظرة المستقبلية ؟! و لماذا يتسم تاريخنا بالصعود المفاجئ خلال فترة قصيرة ثم يعود فينحدر ؟! و يستشهد بواقع شعبين ألمانيا و اليابان أنهما بعد الحرب العالمية الثانية نهضا بعد خمس عشرة سنة ، و هل السبب هو الشخصية لديهما في حدوث المعجزة ؟! "

و الغريب أنه يجيب على تساؤله بجواب هو سؤال في حد ذاته في قوله [إننا واجدها أولاً في عنف الدخول العربي إلى التاريخ ، و تراخيه بسرعة بعد ذلك ، ثم في التناثر المتصل الذي أصاب وحدة الأمة العربية ...] و يقدم مثلاً أنه وجد بين أوائل القرن الحادي عشر و أواخره ما يقرب من اثنتي عشرة دولة في الأندلس ، و ألا يعني ذلك أنه ما من عربي إلا أراد أن يكون هو نفسه ملكاً مستقلاً ، في دولة مستقلة ؟ بل إنه قد يتحالف مع خصمه ضد خصومه من العرب الآخرين ، و يقدم الجمالي أمثلة في الأندلس و الحروب الصليبية ، دون أن يتطرق إلى الأمثلة المعاصرة ، و كما يحدث في أيامنا !! هو يضع سمة عامة أساسية يشكو التاريخ العربي منها هي التركيز على الذات ، و تغليب المصلحة الشخصية ، و الذهول العنيف عن المصلحة العامة .. و طبيعي أن يكون التفرق هو نتيجة ذلك . و يؤكد الجمالي أن المهمة التاريخية اليوم

السمو بالفردية نحو الطموح إلى مثل أعلى حي يشعر كل مواطن أنه يعيش له و المشكلة أننا أمة طال عليها التخلف ، و ترجمة ذلك بالإنسان نفسه و إبعاده عن الظروف التي تسحقه . إن الجمالي يحز في نفسه و يجرحه أن هذا السؤال لا يطرح إلا بصورة سطحية ، و الجواب عنه يظل غامضاً ، فلا هو يكشف عن علته ، و لا هو يجد دواءً .

ثم يعود و يقارن بين تقدمنا – السابق – السريع ثم تراجعنا السريع أيضاً ، و في جرأة سبقت غيره يقول " أن عهد عمر بن عبد العزيز يكشف بوضوح في سيرة هذا الخليفة نفسه ، عن عوامل الضعف و الانحلال الكثيرة التي تؤذن بزوال حكومة الأمويين . فإذا جاء العباسيون أمكننا أن نميز مجموعة ذبذبات بين الصعود و الهبوط .. حتى إذا جاء المغول لم يجدوا أمامهم إلا بقايا دولة ، لا دولة ، و هي في الأصل منهارة " و هو مع ابن خلدون في أن كل دولة تمر بثلاث مراحل . إذن السمة الأولى لتاريخنا هي صعوده المريع ثم هبوطه ، أما الثانية فهي كثرة الثورات التي قامت فيه ... و كل ثورة تطالب بالقضاء على الدولة القائمة المباشرة ، و الثالثة كثرة حوادث اغتيال الملوك أو الانقلاب عليهم . لقد كتبت على هامش كتابه حول المستقبل العربي ص ٦٨ ماذا يريد ؟ فإذا به يجيبني " أما في التاريخ فلا أريد أن أكون عقائدياً ، الذي أريده هو اكتشاف العامل النفسي " و خلص إلى القول " إن هذه الشخصية العربية لها صفة خاصة ، واضحة جداً هي شيء من الإفراط في الفردية "

و في أبحاث أخرى يعزي السبب إلى الحاكم ، و ليس الفرد بتفكيره الآني ، الذي سربها بدوره إلى المحكوم . و ليس غريباً أن نجد " التاريخ العربي يمضي هابطاً باستمرار " و في ملاحظات حول التاريخ يقرر الجمالي " إن الإنسان ابن تاريخه كله ، و كأن كلاً منا يعيش هذا التاريخ ، كما لو أنه وقع في أيامه هو أو البارحة " و نحن نوافقه الرأي فلو أجرينا إحصاء لخطب الجمعة في المنابر لوجدنا معظمها تقدم الحدث ليس في وقته ، بل و كأنه يحدث الآن ، طالبين منا نحن المستمعين " الصامتين " الالتزام بما حدث ، دون فهمهم أن ما حدث في الماضي ، ظروفه و دوافعه هي غير اليوم ، فكيف سيطبق علينا مرة ثانية دون قراءة نقدية ثانية !!! لم يكن الجمالي راضياً عن تاريخه كل الرضا ، فكان جوابه عن هذا السؤال " إنها عهود قليلة جداً ، تلك العهود التي كان يرضيني أن أكون من معاصريها " و الجواب عليه يستغرق مقالات عن كل عهد مؤيداً له أو رافضاً ! بل هو يقول قولة الواثق من تحليله النفسي لتاريخنا ((أن نسبة الأتراح كانت أكبر من نسبة الأفراح ، و أن العهود الزاهرة كانت أقصر و أخصر من العهود البائسة)) ثم يعود إلى التساؤل المكرر عن الأسباب العميقة التي جعلته على حاله تلك ؟! و أخيراً يخلص

إلى القول " إني أريد تاريخاً جديداً لهذه الأمة " و لكنه يتشاءم من عودة التاريخ البائس ثانية فيقول " و لكن من يضمن لنا ألا تكون السنون الألف القادمة صورة للسنين الألف السابقة ، و تكراراً لنماذجها .. "

و في بحث آخر يطرح السؤال على نفسه " عن هوية تاريخنا الحقيقية فإلى أي حد كان تاريخنا العربي عربياً ، و إلى أي حد كان هذا التاريخ غير عربي " ثم يعطينا الجواب بجرأة غير معهودة " كل من يدرس التاريخ العربي يعرف بوضوح أنه لم يكن عربياً إلا فترة يسيرة من الزمان هي بالضبط تلك الفترة التي حكم فيها الخلفاء الراشدون ، ثم الأمويون من بعدهم ، أما العهد العباسي ، منذ البداية عهداً نصفه عربي ، و نصفه الآخر فارسي .. " إن ما يطرحه أستاذنا الجمالي هنا ، ليس بالجديد ، فقد تساءل قبله كثيرون و منهم أحمد زكي في مجلة العربي في أعدادها الأولى هل نحن عرب أم مسلمون ؟! أو من تساءل عن هوية تراثنا ، و قد نشر الكثير و هذا ليس موضوعنا الخاص هنا ، و إن كان الجمالي قد طرحه أيضاً في مقالاته ، دون الإجابة على تساؤله ، و حيرته هي كغيره من باحثينا ، و لكني أقول له و لغيره : لماذا نثير مثل هذا حول تاريخنا و هوية شخصياتنا التاريخية و نقع في تناقض المعقول إلى اللامعقول ، فكم من قائد عربي الأصل هدم الأمة ، و كم من قائد غير عربي بنى الأمة ؟ برأيي المشكلة نحن نضعها ، المهم إنجازات المرء في محيطنا العربي ، و ليس أصله ، إن كانت إيجابية – كما فعل صلاح الدين الأيوبي و الظاهر بيبرس مثلاً – فهو تاريخنا ، و إن كان قد باع نفسه لعدو الأمة و مستبداً فهو ليس تاريخنا .

الأوروبيون في ثقافتهم اعتبروا التراث اليوناني تراثهم و أخذوا منه ما يفيدهم ، و في عصر النهضة ، كانت ثمرة الفكر الحر ملك الجميع فالمفكر الفرنسي جان جاك روسو ، اعتبرته أوروبا مفكرها ، و يطلق اسمه على كثير من الشوارع في عدة دول ليست فرنسية .. المشكلة هم وجدوا لها حلاً ، و نحن لا ! هو قد وقع في التناقض المعاكس كغيره !!

الردود : و من الذين ردوا على حافظ الجمالي بعد قراءتهم بعض أبحاثه و مقالاته (عبده عبود) بعنوان حول دعوة حافظ الجمالي إعادة كتابة التاريخ في مجلة المعرفة (العدد ١٧٤ آب ١٩٧٦) بقوله : و لكن ما هي أهمية هذه الدعوة ؟ نحن بحاجة لتاريخ جديد تعود إليه الأجيال اللاحقة ، و لكن المشكلة أي مفهوم للتاريخ نريد ؟ هو من صنع الأفكار السائدة لتسقطها على الماضي ، بعضهم يرى في الحدث رأي ، و الآخر يرى العكس .. و هناك تياران المثالي و المادي ، مفاهيمهما تتناقض مع الآخر ، لذلك لابد أن نحدد لأنفسنا مفهوماً علمياً و واقعياً

للتاريخ ، معدداً أسباب الضرورة العلمية لدراسة التاريخ و العقبات التي تواجهنا كالتخلف العلمي ، و البحث العلمي لا مكان له في بلادنا و أدواته و مؤسساته غير موجودة ،
يضاف أزمة الحرية في العالم العربي .

هو في نظرته للتاريخ تشاؤمي ، إذ يرى فيه السلبيات تغلب على الإيجابيات بقوله " لكن ما أكثر ما يلقى الإنسان في تاريخه العربي (اللا عربي – بعد ذلك – بالدرجة الأولى) من مآسٍ يحزن لها قلبه ، و يبتئس لها " . و يصل الجمالي إلى " أن كل الثورات التي قامت في عهد الأمويين و العباسيين لم تحاول إطلاقاً أن تطالب بالإصلاح ، بل حاولت دوماً أن تسقط الحكم القائم ، فإما هو و إما هي ، و التنافي قائم أبداً " و حول الحركات الفكرية المتصلة بالدين فإنه يصل إلى النتيجة ذاتها " إذ لم تكن تقوم كحركات فكرية فحسب ، بل كانت تقوم كـ " مطلقات " لا يمكن أن يقبل واحد منها إلا بنفي كل ما عداه .. " نتفق معه في النتيجة التي وصل إليها في نفي الآخر ، و لكننا نتحفظ في ذات الوقت ، إذ لم يقدم البديل كعادة معظم مفكرينا في النقد دون الحل ، في الهجوم دون الدفاع . و لا نبالغ في أنه قرر حذف ألف سنة في تاريخنا ، لأنها لم تحسب علينا كأمة ، إذ لابد أن يتغير شيء جذري في حياتنا ، أو أشياء كثيرة جذرية ، أهمها و لا ريب إعادة الحرية و الكرامة إلى الإنسان ، و فتح أفقه على كل أبعاد الزمان ، و على المستقبل خاصة ، و ليعود ليكتب لنفسه تاريخه و تاريخ العالم معه أو في الحالة الثانية فسيكتب الآخرون له تاريخه ، أو لن يكون له تاريخ لتكون لنا رسالة ، نرقى إلى مستواها ، و يعود إلينا بعد الزمان الثالث أي المستقبل ، و نستعيد الشعور بحرية الإنسان و كرامته ، فكما يكون الإنسان يكون التاريخ ، و كما يكون التاريخ يكون الإنسان ، و كل واحد منهما صورة تمثل الآخر " و نتفق مع أستاذنا الجمالي في أنه " إذا بقي كل منا " دارة مغلقة " لا ينفتح على الآخرين ، فلابد أن تبقى مشكلة هذه الأمة قائمة ، و على الذاتي فسح بعض المجال للموضوعي ، و على الأنا تقبل الآخر و على الماضي و المستقبل أن يتواقتا في الوجود مع الحاضر ، و على المطلق أن يصبح نسبياً ، و السطحي أكثر عمقاً " هو يقدم الأمثلة التاريخية ليصل إلى القول : إن التفكير الآني متآزر دوماً مع الانغلاق على التجربة ، و عدم الاستفادة منها ، فآنية الفكر مزامنة للتخلف . يقدم مثالاً – مكرراً في أكثر من مقال – انتشار الصوفية في وقت نحن بأمس الحاجة إلى الضرب على يد الغازين ، و الغزالي نفسه يذهل عن حكم هذه المعادلة ، عن أبسط ضرورات العصر ، يقصد الدفاع أو الجهاد ضد الغزو الإفرنجي في العصر الوسيط أي أخذ الغزالي (بالفعل اللا متلائم) في سلوكه الصوفي

رد على الجمالي الباحث (إحسان جعفر) بعنوان الغزالي و الحروب الصليبية في مجلة المعرفة العدد ١٧٩ عام ١٩٧٧ جواباً على مقاله (نحن و التراث) في أن الغزالي الذي كتب الكراريس الكثيرة ، لم يكتب شيئاً عن الحروب الصليبية ، يدافع عنه و يفند من قال إنه لم يشر إلى الجهاد ، بل هناك إشارات كثيرة في كتبه .. كذلك يرد عليه حول دور الصوفية في عدم دعوتها للجهاد ، مع أن ابن عربي لعب دوراً هاماً في حث السلاجقة على محاربة الصليبيين . كذلك رد عليه في نفس العصر الباحث (عبد الفتاح محمود) حول مقال الجمالي (العرب و الفكر العلمي) داعياً إلى وجود شخصية عربية جديدة ، ويجب أن تكون شخصيته قد انقلبت فعلاً و تحررت من جمود البيئة و استعبادها . و أما الرواسب التي ضخمتها النيات الزائفة ، و عظمتها النفسيات الخانعة ، و بجلها الواقع الفاسد المجزأ ، و كرستها عقليات فقدت إيمانها بقدرة أمتها و حقها في الحياة الحرة الكريمة . و يؤسفنا جداً أن نجد الجمالي يستطيع أن يجعل الجبال الراسيات (بعدة مقالات) .. كما فاته التنظير العلمي لبعض الأساطير .. "

و في بحث نشر للجمالي في المعرفة بعنوان (وعي التاريخ) قد عاد إلى الماضي ليجد الإجابة الواحدة " أنه قليل الأفراح ، كثير الأتراح ، إلا أن (النسبية) تدخل في كل الأحكام و يعتبر العهد الأموي ، مهما قيل فيه ، هو الأكثر تألقاً ، و أنه دفع ثمن مزاياه بالشعوبية التي قضت عليه " بل ينوه إلى عودة رواسب الجاهلية للاستيقاظ و العصف بهم ، لتجعل كل فريق يريد كل شيء لنفسه .. أو كل شيء لي ، و لا شيء للآخر .. و كذلك العابر و الجزئي و الآني من المصالح ، هو الذي كانت له الصدارة دون الثابت و الكلي و الدائم .. و كان الحكم بلا نواظم و يتعلق بأشخاص الحكام " و يؤلمه أشد الألم في أن يرى " ما شهده تاريخنا هو ضعف الحاكم و ضياع النواظم ، فكانت الطامة الكبرى . لذلك وجد الغربيون أن بلادهم تحكمها الشرائع و منطقتنا يحكمها ملوكها ؟ و أن مشكلة الحكم بدأت يوم قالوا : لا حكم إلا لله فيجيب علي / ر / بقوله : كلمة حق أريد بها باطل ، و الثانية بقولهم القرآن حمال أوجه " معتبراً – أي الجمالي – أن التأويل هو الأساس في نشوء المذاهب . ليخلص إلى القول : إن الحياة العربية قلما عرفت النواظم الجمعية الدقيقة ، و كثيراً ما عرفت الحكم الفردي حتى في القضاء " " الإنسان ابن تاريخه كله ، وكان كل منا يعيش هذا التاريخ كلَه . لذلك فهو يريد تاريخاً جديداً لهذه الأمة ، مع البحث عن العوائق التي غيبتنا عن مسرح التاريخ ، و جعلتنا من ضحاياه لا من صانعيه .. كما يستشهد بالحصري في نقده له بأنه لم يشر مطلقاً إلى السبب الذي أحال التقدم إلى تخلف و الحضور التاريخي إلى غياب تاريخي "

يضع الجمالي فرضيات استمدها من تاريخنا :

١ – نفترض أن لدينا طاقة كبيرة على التنازع و التنافر ، و الاقتتال و الاختصام .

٢ – هذا التباين الذي لا حدّ له بين حقوق الدولة ، و حقوق الأفراد .. و هذا ما اضطر أحد كتّابنا لعنونة كتاب له بعنوان : (مواطنون لا رعايا)

٣ – فقر الأرض العربية ، و قلة مواردها بحسب مساحتها ، و لولا وجود البترول لعدت البلاد العربية من أفقر بلاد الدنيا .

أما التاريخ فهو لا يريد أن يكون فيه عقائدياً ، بل علمياً ، ساعياً وراء اكتشاف العامل النفسي فيه ... إذ وجد اللحظة الحاضرة هي كل الوجود في عينينا ، و كأن الماضي عالم غريب قطعنا به كل صلة ، و كأن المستقبل لن يوجد أبداً ، و لن يتأثر أبداً بما نفعل الآن إن هذا العمى العقلي عن امتداد الزمان في الماضي و الحاضر ، هو الذي يجعلنا أعجز الناس عن الاستفادة من دروس الماضي ، و أقلهم حيطة للمستقبل . هنا هو يمسك بلب الوعي للزمن التاريخي ، فهل هو يريد أن يكون ابن خلدون عصرنا ، حين يكشف بعض عثراتنا أو صور تراجعنا !!!

٣ – الشخصية العربية :

في كل الأسئلة التي يطرحها د.حافظ الجمالي، يحاول الإجابة عليها قدر الإمكان، وإن كان – برأينا – لم يجب عليها كما يجب،وحتى إننا نشعر بالاضطراب أحياناً في عرض ما يريد، وفي الإجابة عما يطرح. هو يريد إنشاء صورة حياة لنحياها نحن، ونعمل جادين، على أن نهيئ لأنفسنا وجودها.ولكن كيف سنكون صورة حياة، ونحن لم نجد بعد ما يسمى بالشخصية الأساسية، وبتعبير آخر كما يقول الجمالي ((نحن نعتقد أن الشخصية العربية تشكو من إفراط في التركيز على الذات، لم تزده العوامل الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إلا قوة وعنفاً ومن الطبيعي بعد ذلك أن يتضاءل العمل الجمعي، ويضعف الوجدان المشترك...))

ومن مفكرينا السابقين هناك من عالج هذه المشكلة كـ ابن خلدون وابن تيمية والأفغاني ومحمد عبده .. لكن ابن خلدون لم يعالج قضية التخلف العربي مباشرة، بل استوقفته ظاهرة واحدة هي ظاهرة التقلبات السياسية وسرعتها، أما ابن تيمية فرد التخلف كله إلى الانحراف عن جادة الدين السليم، والأفغاني يرى أن الاستعمار هو الذي مزق الأمة ، والدواء في التحرر، وأما محمد عبده لم ير من وسيلة للقضاء على التخلف إلا في المزيد من العلم والثقافة، والكواكبي دعا إلى حكم الشورى الديمقراطي وإنشاء قاعدة أخلاقية جدية .. لكنه يعود مرة أخرى يعزى التخلف بالدرجة الأولى إلى التركيز على الذات، وإن الفردية سمة من سمات الطبع العربي، برزت أشد البروز في عصور التخلف، كما كانت بارزة في العهد الجاهلي، في العصبيات القبلية ، ويقدم

أمثلة حية كاعوجاج الشوارع وطريقة تنظيم المقابر، وانقطاع كل حوار بين المفكرين، مما يشير إلى حقيقة واحدة : هي أن العربي يعني بنفسه أكبر العناية أو يتركز عليها أكبر التركيز ..

وإن نواظم العمل الجمعي قلما تلاحظ في حياتنا العامة والملاحظة الثانية يراها في سمة التركيز على الذات أن كل إنسان مطلق مغلق على نفسه ..

والملاحظة الثالثة تتم الفردية في الحالة التي تفقد فيها هذه الشخصية حريتها، وتصبح مضيعة، وتفقد وعيها لذاتها.

و لعل أهم صفات الفردية (النرجسية العنيفة) ، و لتثبت وجودها تسعى إلى نفي الآخر ، و هي تعيش في الحاضر و كأنها تنفي الماضي و المستقبل معاً . و هكذا نصل إلى التعليل الأسلم و هو ما عرفته الشخصية العربية من تضخم الفردية كحب التمييز في العصر الجاهلي ، و الذهول عن العمل الجماعي . الشعب الذي يريد الحياة عليه أن يقلب الفردية إلى تفرد ، و عندئذ يكون من المحتوم عليه أن يعيد النظر في كل مؤسساته ليجعلها حافزة على التفرد ، لا ترسيخاً للفردية ولست أدري هل أستاذنا الجمالي ينسى ما سطر في أبحاث سابقة ليعود و يكرر ما كتبه ، إذ في كتابه (بين التخلف و الحضارة) يؤكد و يعيد ما طرحه سابقاً في إغراق العربي بالفردية ، و كذلك بالمثالية في نزوعه نحو المثل العليا .

لا يدعو الجمالي إلى نفي الفردية [و الأفضل لو قال الفردانية] أو التنازل عنها لدى العربي ، بل المهم أن يعيها و يتسامى بها ليضعها في خدمة الآخرين ، و لا يتم ذلك إلا إذا ساد الحياة الجمعية مثل أعلى كبير يتقمصه القادة حياةً و سلوكاً . و بعد أن يستشهد من التاريخ يصل إلى القول " و هل يعني أن العربي لا يرى إلا نفسه ، و أن هذه النفس تبدو له كالمطلق ، و هذا يذهله عن الآخرين و يمحوهم ليضخم شخصيته ؟ و يقدم مثالاً على ذلك مدخل البناية أو سلّمها ، أي الشيء المشترك الذي يخدم حاجات المجتمع !! من المثال البسيط السابق يقدم مثالاً أشمل أن الحياة العربية لم تخلف دستوراً أو قانوناً ، أصدره خليفة أو سلطان في مختلف أرجاء الأرض العربية . و كل هذا يعني " العجز عن تجاوز الأمور الفردية ، و فقدان المؤسسات العامة ، و سرعة اندثار ما يبنى لها ، و هو ما يسميه بنزعة التركز على الذات ، و يعود إلى ضرب الأمثلة الأخرى بقوله نقص روح التضحية يدخل بسهولة في باب التركز على الذات " و هو هنا لم يبين أسباب الفردانية ، و التي أدت إلى انعدام المؤسسات حتى إن الدين رغم أهميته عندنا لم نستطع إقامة مؤسسة له حتى و لو كانت فقهية على الأقل (فايز)

الجمالي أحياناً يستشهد بالقرآن لإثبات حجته و أن الفردانية " تنشأ عن اتفاق الإرادات ، بدلاً من أن تنشأ عن أوامر إلهية .. " و يستشهد بقوله تعالى للرسول / ص / " فذكر إنما أنت مذكِّر ، لست عليهم بمسيطر " إذ جاءت هذه الآية مسايرة للطبع العربي . ثم يعود الجمالي في أبحاث أخرى إلى تقديم الأمثلة التاريخية عما عانته الشخصية العربية بوضع (معاوية) طبيعة تالية لها بأن يستل سيفه لمن يرد عليه ، و كذلك حين جاء العباسيون و اشترك الفرس في الحكم ، و أصبح الحاكم بمثابة خليفة الله في الأرض ، رأينا تلك الحرية تمضي إلى الأبد

و يقدم مثالاً مميزاً في تراثنا وهو كتاب الأغاني في أنه لا يقدم قصيدة واحدة لواقعة القادسية أو اليرموك ، بل في تخليد غزو قبيلة لقبيلة ، أي معناه العربي مشغول دوماً بنفسه ذاهل عن القضية المشتركة . و كذلك كتاب الحماسة لأبي فراس الحمداني سنجد أيضاً مثل كتاب الأغاني : الذهول نفسه عن قضايا الأمة الكبيرة ، و الانشغال بالقضايا القبلية الضيقة – الشخصية ، و حين ينتقل إلى الحكم يجده يصاغ في تراثنا في أوامر ذات طابع آني ، عملي ، و ما وجد و عُرف هو الإصرار على عدم إنشاء القوانين ، لا على إنشائها و من الأمثلة التي يقدمها أن يوصي أبو يوسف في كتابه الخراج بتوحيد قوانين الجباية ، و عندئذ يتكرر المشهد ، و يسأل هرون الرشيد أصحابه عن سلامة هذا الرأي ، فيجيبون بالكلام نفسه : لا ينبغي أن تفعل ذلك ، لأن رسول الله لم يفعله . و يعلل لِمَ يتبدل القانون كثيراً ، لأن المواطن يحاول استثناء نفسه من القانون و يطبقه على غيره ، و هذا عائد إلى أن طباعنا الفردية ترى أولاً و أخيراً أن لكل مواطن حقاً في قانون خاص به ، يناسب اللحظة التي هو فيها . و يستشهد الجمالي بالوقائع التاريخية على قوله هذا بما توصل إليه ابن خلدون ، أنه ما من دولة تعمر أكثر من مئة سنة و بحكم العباسيين و غيره .. و أن من يقرأ التاريخ العربي سيجد أمثلة تنهض دليلاً على أن هنالك مستوى عالياً من الالتصاق بالذات ، يجعل نشوء القوانين صعباً ، و استقرار الحياة الاجتماعية عسيراً .. و لذلك يصبح العلم مستحيلاً . و نسأل الجمالي إذا كان العلم مستحيلاً ، للأسباب السابقة ، و هذا واقعنا الذي يطلق عليه الحاضر ، فهو أيضاً يسمه بالقول كل حاضر لدينا هو نفي للماضي ، و انغلاق على المستقبل ، و كأن اللحظة الحاضرة هي كل الموجود في عينينا ، كما تتسم بغلبة العاطفة على العقل ، و الانفعال على المنطق ، و الوجود النفسي على الموجود الموضوعي . هو – أي الجمالي – رغم نفيه للفردية التي يعتبرها سيفاً ذا حدين ، فهو يدعو إلى الفردية الواعية أحياناً عن طريق المغامرة و التضحية ، كما فعل عمر و اعتبره من أعظم الشخصيات التاريخية . و أما الحل عنده فهو في النظام التربوي بالاعتراف بنمو الفردية في

الإنسان العربي ، و رعاية هذه الفردية بالتثقيف ، و التهذيب و التوعية ، و قلب كل ما هو لا شعوري فيها إلى شعوري . و لكن الجمالي يعود بعد صفحات ليتراجع عما طرحه بالقول " فإن فردية العربي ليست أصيلة ، بل هي رد فعل ، و متى تغيرت ظروف البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ، تغير رد الفعل هذا حتماً .. "

لو عاش الجمالي ليرى مجتمعنا في مطلع القرن الحادي و العشرين لما تراجع عن رأيه ، إذ مازالت الفردية دانية متأصلة ، بل هي في ازدياد ، رغم تغير الظروف !! و خلص أستاذنا إلى القول : إن فقدان العقلانية ، و سوء التنظيم ، و ضعف روح المسؤولية ، و ضعف الروح الجماعية ، و انصراف العربي إلى همومه الخاصة ، و ذهوله عن قضايا الحياة العامة ، كل ذلك ليس إلا المستوى الهابط من فردية العربي .. " بل يلغ العربي – بلغة العالم المعاصرة – إذا قلنا إن شدة التصاق العربي بنفسه ، تحمله على إعلائها على كل إنسان آخر .. في شبه نرجسية عريقة ، و يقدم مثالاً حقيقياً في أن عدم استقرار الحكم الذي قلما عرفه العرب إنما ينشأ عن غلبة النواظم الموضوعية على النواظم الذاتية ..

و هو يدعو أيضاً ألا نشغل أنفسنا بأمجاد الماضي عن آلام الحاضر ، التي هي جزء من آلام طويلة لازمت كل العصور التي فقد فيها العربي حرية التصرف بمصيره ، و انتقل من مستوى الإنسان – القيمة و الغاية ، إلى مستوى الإنسان – الوسيلة و الأداة . و غاية بحثه أن التفرد الذي صنع الأمجاد كان له مثل أعلى يغذيه ، و يعلو بطموحه ، و انحط و أصبح فردية أنانية ، يوم فقد هذا المثل الأعلى . ثم يعود ليؤكد أن في الشخصية العربية شيء واضح جداً هو الإفراط في الفردية ، و لكن ماذا يعني بالفردية ؟ و كذلك يقول إن الشخصية العربية تملك هذين من الميول الفردية و الميول الجمعية ، لكن التاريخ العربي في سماته الرئيسية ، يعكس توازناً بين هذه الميول ، هو أقرب إلى تلبية الميول الفردية و هو يقدم هذا فرضية ، يأمل أن يكون فيها مخطئاً ، و يعتقد أن أزمتنا سابقة لإسرائيل ، لا تالية لها ، و ما كثرة الثورات و الانقلابات و خلع الملوك ، و قتلهم ، و ما إلى ذلك من سمات واضحة في تاريخنا، لا يمكن إلا أن يعبر عن أزمة مستمرة نعيشها دوماً ، و إليها يُردّ الكثير مما نحن فيه و الفردية لا تظهر في التاريخ العام وحده ، بل في كل صورة الحياة العربية ، أو بما يسمى أيضاً بتناثر الوجدان الجمعي ، هكذا استفاد الحكام جميعاً من هذا التناثر ، و جعلوا الحكم فردياً كمقابل لفردية المواطنين . حين يتطرق الجمالي إلى القانون العلمي في حياتنا ، يقدم الأمثلة التاريخية و الواقعية ليصل إلى القول بأن الالتصاق بالحاضر ، و ضعف القدرة على التجريد ، أمور تظل لاصقة بنا ، عاملة

فينا ، مؤثرة في كل صور تفكيرنا ، مما حال دون ظهور الفكر العلمي . و يستشهد بكتاب (عمر رضا كحالة) عن العلوم البحتة عند العرب وسيجد أن العلماء كانوا فرديين ، وليقول : أشعر أن هذه الفردية لا تحتفظ من الماضي إلا بالشيء الذي يؤكد اختلافها عن الآخرين و حتى المستقبل إن وجد فهو يستخدم تميزاً و تناقضاً ، و إثباتاً للفردية و عودة لكتاب (لوبون حضارة العرب) سيرى في تأويله لسقوط الحضارة العربية ، أن العرب مفطورون على الصراع و الحرب ، ما إن انتهوا من الفتح حتى صارعوا أنفسهم و في محاولته تعريف التركز على الذات يجدها في أربعة عناصر ١ – تضخم الشعور بالذات ٢ – الذهول عن الآخر ٣ – غلبة التلاؤم بالتمثل على التلاؤم بالمطابقة ٤ – ضعف الشعور بالزمن و الوقوف على الحاضر أكبر الوقوف .

و في فصل آخر بعنوان خصائص الشخصية ، و عنوان جانبي بين الازدهار و الانهيار ، وجد أن الشخصية العربية تهوى الألفاظ و أناقتها ، أكثر مما يغريها التعامل الحي ، مع الآلة و المادة ، و أن هذه الشخصية قليلة الاستفادة من تجارب الماضي .. و من الطبيعي برد فعل عربي هو النفي الكامل لها . و لقد خيل إلينا – و الكلام للجمالي – من خلال ملاحظات شتى أن الطبع العربي يتميز بشيء من الفردية البدائية ، قد تظهر في إيثار مصلحتها الخاصة على المصلحة الجمعية . و لابد في تعليل فقرنا الحضاري من سبب ، و لئن زعمت أن هذا السبب هو في هذه الفردية ، فإنني لم أقل إلا نصف الحقيقة ، و إن هذه الفردية ، ليست إلا تعبيراً عن ظروف تاريخية معقدة ، أدت إلى جعل النفس العربية مسحوقة ، و جعلت كل همها طلب السلامة في أبسط صورها !

هموم الجمالي التي شغل بها نفسه ، بمواضيع عديدة ، كانت أهمها كما يقول " موضوع أمتي التي أتى عليها التخلف ، و أحاط بها الانحطاط ، و تناثرت أسوأ التناثر ، و البحث عن طريق لإنقاذها من ورطتها ، و إيقاظها بعد طول الغفلة .. " كذلك من همومه " خط الانحدار العربي الذي كان يوازي خطوة فخطوة انهيار هذه الحرية ، و أكثر من ذلك أنه سيظل يوازيها ، فإذا كان في هذا القول شيء من النبوءة ، فإنها حتماً نبوءة معقولة و معللة و من المؤكد أن نظرية عامة للحرية لم توضع لدينا بعد ، و لاتزال " البراغماتية " المباشرة هي الإطار الذي تفهم من خلاله الحرية .. " أليس في قوله هذا عدم فهمه للواقع العربي ، إن كان العربي مفرطاً في الذات ، فهو لن يكون براغماتياً لأنه ليس هو كذلك فقط ، بل هو إلى جانب فردانيته ، هو أيضاً مثالي ، و المثالي لن يكون براغماتياً ، و نحن نخالفه الرأي فيما توصل إليه ، و إن كان فيما بعد في بحث آخر قد توصل إلى القول : العربي يشكو من تركز على ذاته ، بمقدار ما هو مفرط في مثاليته

أيضاً .. و فرضيته هذه بجمع الذات و المثالية هي سبب تخلفنا .. و الحل بخروج الذات من عزلتها ، و إفساح المجال المعقول لطموحها المثالي . و إنني أتفق مع الجمالي في استشهاده بأقوال (د. قسطنطين زريق) في أن الشخصية العربية أحد عللها الرئيسية هي إقفال العقل العربي على نفسه الأبواب و النوافذ فانقطع عن النمو ، فالتهت الروح العربية بالأهداف الشخصية و اللذائذ المادية .. " و يعود الجمالي إلى تفسير وجود الأنبياء في المنطقة إلى أن العربي أولاً والسامي بوجه عام (١) ، لا يسهل عليه الخضوع لقوانين وضعية ، تنشأ عن اتفاق الإرادات ، بدلاً من أن تنشأ عن أوامر إلهية .. و علينا أن ندرك أن الفردية العربية البدائية تستعصي على الحكم الوضعي ، و ضروراته الطبيعية .. و لندرك معنى الآية الكريمة " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد " كما لو أن النبي / ص / لا يفرض نفسه قائداً بأية حال مسايرةً لما يعرفه من سمات الطبع العربي ، و إغراقه في الفردية ، و لكنه يعلن للناس أنه اختير لإبلاغ رسالة ، و القيام بمهمة : " فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر " . بل هو ينظر إلى الحياة العربية حتى في جاهليتها لها رصيد ضخم من الرجولة و الفروسية و الشجاعة و الخلق النبيل ، و لم يزد النبي / ص / على أنه وحّد بين هذه الأرصدة المتناثرة و جمعها تحت لواء واحد .

ثم يفرد الجمالي فصلاً بعنوان مرتسمات الشخصية العربية في مؤسسها ، و أنها تتردد بين قطبين هما التألق ثم الذبول ، و إن كنا عرفنا وجود التألق من خلال التاريخ ، مستشهداً بـ (ابن خلدون) ليجد عنده ما يدعو إلى التشاؤم ، في نظرتنا إلى ما ملكه العرب و كيف تقوض عمرانه ، و أنهم متنافسون في الرياسة ، و هم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، فقلما تجتمع أهواؤهم " ثم يتابع وصفه الشخصية العربية باستشهادات من كتاب (أحمد أمين) في فجر الإسلام و من (لا مانس) في أن العربي يضع حريته فوق كل شيء عنده ، إذ هي ديمقراطية مبالغ بها إلى حد بعيد ، و ثورة على كل سلطة تحاول أن تحد حريته ، حتى و لو كانت في مصلحته ، مما يفسر لنا سلسلة الجرائم و الخيانات و الثورات التي شغلت أكبر جزء في التاريخ العربي . و يرجع الفضل إلى الإسلام في إحلاله الحياة الحضرية ، محل الحياة البدوية ، و حضه على الجماعة مع الهجاء للأعراب .

لا ينكر الجمالي " أن التقدم العربي نفسه كان هو الآخر أصيلاً ، نابعاً من الذات ، و ليس بدخيل ، فكأننا غير مدينين لغيرنا بشيء ، لا في حالة التقدم و لا في حالة التخلف " بل يعود ليؤكد أن التخلف العربي سبق تقدم أوروبا من طويل و كانت مظاهره الأولى ، تخلف العرب

بالنسبة إلى أنفسهم لا بالنسبة إلى الآخرين ، و تناثر الوحدة السياسية ، و هبوط مستوى البحث العلمي ، و ضعف الإنتاج على كل المستويات .. " و نحن قد نتفق معه فيما تقدم ، و لكن أليس هناك محاولات لقوة الإنتاج الاقتصادي و الاكتفاء الذاتي ؟! كما نتفق معه في أن أحد الأسباب لتخلفنا هو إغلاق باب الاجتهاد الديني المغلق منذ القرن الخامس . أيضاً هو يدعو إلى التفتح السياسي ، فلولاه لما نضجت الحياة العربية .

لا يقدم أستاذنا الجمالي الأمثلة من تاريخنا الوسيط ، بل من الحديث و المعاصر ، يربط خصائص و سمات شخصيتنا مستشهداً بما كتبه (د. صادق جلال العظم) في تعليل هزيمة ١٩٦٧ بعد دراسته لعالم آخر ، أنشأ مفهوماً اسمه (الشخصية الفهلوية) و التي تبحث عن أقصر الطرق و أسرعها لتحقيق هدف معين .. و هذه الشخصية تحول بيننا و بين تقبل الحقيقة و الواقع ، و تضطرنا لإخفاء العيوب و الفشل بغية إنقاذ المظاهر ، كما تنزع للحماس و الإقدام العنيف و الاستعانة بالصعاب ، سنجد مظاهرات تندد ، و إذا طلبت هيا إلى التدريب ، لم يبق منهم في ساحة التدريب أحد كما حدث عام ١٩٤٨ (١)، كما نلجأ لنفي الواقع إلى العقلية السحرية ، و ما أكثر من ينادي أنه ثوري ، و يرفع الشعارات ، لكنه لا يبذل جهداً في خدمتها و هكذا يخدم أكثرنا ثورته بنفسية محافظة تقليدية ، لا صلة بينها و بين الثورة . لعل تشاؤم الجمالي بعد نكسة ١٩٦٧ ، حوله إلى تفاؤل في أواخر البحوث التي كتبها عام ١٩٩٧ خاصة بمستقبل العرب ، حين وجد في المغرب العربي مفكرين يحملون الهم القومي و على رأسهم تفاؤل (د. محمد عابد الجابري) و غيره ، و إن كان المشروع القومي يتمتع أو مازال يتمتع بدرجة عالية من التوتر ، خلافاً لما كان متوقعاً بعد الهزائم الكثيرة للعرب . الجابري يعتبر العقل العربي قد حُنط في مومياء مغلقة في أهرامات عميقة بسبب الموروث الثقافي القديم السابق للإسلام .. بينما الجمالي يلاحظ أنه يضعف من شأن الظروف السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية . و يظن الجمالي أنه ما من أمة عانت خلال مسيرتها التاريخية ، ما عاناه العرب. إن صورة الحياة السياسية في الدولة (العربية شكلاً) كانت أبعد ما يكون عن الاستقرار ، و أن كل ما بنته الحضارة العباسية ، يقف عند المأمون .. بل المهم برأيه الإلحاح على نقطتين أساسيتين :

١ – إن العرب فقدوا سيادتهم على الأمم التي عاشت في ظل الإسلام منذ بداية الحكم العباسي ، و أصبح لهم شركاء ، و مضت السيادة العربية إلى غير رجعة .

٢ – إن الدول و الإمارات ظلت تعيش حياتها في قلق دائم ، و ثورات متصلة من الداخل و الخارج.

و يضيف إلى أن طبيعة الحكم في البلاد العربية بعد الإسلام كانت سلطوية ، أكثر مما هي نظامية ، لذلك التقدم العلمي لم يكن كبيراً ، خلال الحضارة العربية و قد قرر الفيلسوف (غويتيه) أن العرب لم يتمتعوا بثمار حضارتهم المشروعة .

برأينا قد وصل الجمالي إلى الحلقة المفقودة في أسس بناء حضارتنا الجديدة في قوله هذا " نرى ... أن إقبال العرب على العلم غير كبير " ثم يفرد بحثاً عن الفكر العلمي في كتابه (بين التخلف و الحضارة) ليؤكد هذه المقولة ، و التي أظهرها بقوله " إن العرب يتميزون ، بشهادة مفكريهم و أدبائهم بفصاحة اللسان ، و طلاقة الكلام و جودة المعاني .. كما يتميزون بالصبر على الشدائد ، و الشجاعة في الحرب و الإقدام .. و لكن الحضارة الحديثة علم و صناعة ... و لهذا فإن التخلف أصبح الآن واضحاً .. بل يتضاعف و يقدم مثلاً حياً نعايشه يومياً نحن المربون – أن الطالب يريد النجاح بأيسر السبل و أضيقها .. بل يعود ليقدم مثالاً آخر أننا لم نملك عالماً بعد (ابن خلدون) ، و لا فيلسوفاً بعد (ابن رشد) .. و يظل الشعر الحديث على علاته ، أجمل تعبير ، و أروع صورة لعطائنا العقلي .. و إن وجدت مؤلفات فهي تكرار لما قاله الآخرون . هل يرفض الجمالي التراث طالما هو كذلك ، أم نواجه معركة معه (أي التراث) ؟!

هو يقول : من الصعب أن يتصدى إنسان لمعارضة نشر الكتب و المخطوطات المتصلة بالتراث .. و هو ليس كتباً كله ، بل هي صورة لأشخاص لهم ماضيهم في طرقهم و أسلوب تفكيرهم ، الحل عنده بإعادة النظر في تراثنا و تقييمه من وجهة نظر الحقيقة الموضوعية ، و يوضع في مكانه من الإطار الفكري العام .

" نحن في ميلنا العفوي نظن أننا نتبع التي هي أقوم من دون أن نعرف إن كان سلوك من سبقنا معوجاً ، مضطرباً ، أو غير قويم ... و لكن علينا أن نتساءل : لم نحن متخلفون ؟ "

الجمالي هنا لم يتساءل ، لم تقدم غيرنا و نحن تخلفنا ؟ فالمقارنة مع غيرنا (قَلَّت) عنده ، مع أنه مطلع بعمق على ثقافة و حياة المجتمع الأوروبي !! أما الحضارة التي يريدها الجمالي ، فلن تكون إلا بفحص مؤسسات الماضي التي أورثتنا التخلف ، و التي جعلت الإنسان العربي أداة أو وسيلة بيد الغير .. كذلك لابد من النظر بعين الريبة و الشك إلى كل ما يحد أفق الفكر .. و هو لا يتفاءل إذا كنا نظن ملاحظاته سطحية ، و ليس المهم الشعار ، بل الإنسان الذي يخطط ، هذا الإنسان المتنكر للعبودية ، و جده الجمالي في جمع العرب مع الإسلام مقدماً عدة أمثلة لهذا الرأي ، و كأني به يريد الدعوة إلى (العروبة المسلمة !!) ، لكن ما هو جوهرها ؟ هذا ما لم نجده في ثنايا أبحاثه !!!

٤ – التخلف العربي :

يلاحظ الجمالي أن المستشرقين انقطعوا منذ أكثر من نصف قرن عن دراسة أسباب تخلفنا ، لأنها معقدة جداً ، يلف بعضها على بعض ، ويدور كل منها على الآخر فأوربا عانت في الحرب العالمية الأولى والثانية أكثر مما عانيناه نحن في جميع الحروب التي خضناها ، إلا أن عشرين سنة بعدهما كانت كافية لترميم آثارهما ومتابعة التطور ، بل تسريعه بوتائر أكبر فأكبر . لماذا حدث هذا التخلف عندنا ؟ يقول بأنه عائد إلى شلل عقل المواطن العربي ؟ إذ كان دوماً منفعلاً بالواقع المحيط به لا فاعلاً فيه ، أو متبعاً لا مبدعاً . قد يقول أحدنا هناك ازدهار مطرد في الوطن العربي ، لكن هذا الازدهار ظل يتحرك على مستوى الثقافة العامة ، و الأدبية بخاصة ، دون تطويع الطبيعة لحاجات الإنسان وسبب تخلفنا هو غلبة الهوى على العقل ، والقضية هي قضية توازن بين العقل والعاطفة ، وليس لنا سبيل إلى الخروج من التخلف إلا بتحقيق التوازن القومي بين العقل والعاطفة . الوضع العربي فريد لا مثيل له في العالم كله، فهو هبوط من حضارة عليا إلى حضارة دنيا ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن الوحدة إلى التناثر ، ومن مستوى علمي كان يملك علوم العالم كله، إلى آخر يعيش على هامشه ، بالإضافة إلى التناقضات والصراعات الكثيرة بين أجزائه ، مما كان معروفاً بالماضي ومألوفاً، ويزيده فرادةً ويشبه نقص القادرين على التمام كما يقول المتنبي ، خلافاً لكل بلاد العالم النامية . نلاحظ أن الذين يدرسون في البلاد المتقدمة لا يفكرون بتقدم مجتمعهم ، بل بجمع الثروات كأن الأمر لا يعنيهم بشيء . وتسمعه يتأوه ويتأفف من هذا الوضع المزري . أما في أوساط الشعراء فإنه يكثر التأوه والتوجع والتأفف والشكوى والتذمر ، وما نكاد نعثر على ديوان لشاعر حديث إلا وفيه ألف صورة من هذا القلق والألم و التفجع والقرف . ومع ذلك فإن علينا أن نبحث في أوضاع أمتنا المتردية في الحاضر وحده ، أو أنه يجب أن نتابع البحث على المستوى التاريخي ، لنلاحظ كيف بدأ التردي ، من أي الأسباب ومع أي العوامل ؟

كان (الكواكبي) قد قال بأن أربعين سنة ضرورية وكافية لنصبح كالآخرين ؟ وها قد انقضى على جهدنا المتصل للحاق بالآخرين أكثر من ستين سنة ، وفي مصر أكثر من قرن وثلاثة أرباع القرن ، ويقال رغم ذلك : إننا من الشعوب النامية . لماذا لأن الصراعات العربية مستمرة "ففي وسعنا أن نقضي عشرات السنين في صراعات لا تنتهي حول صورة الاشتراكية ،وأننا مستعدون لخلق ألف مشكلة لإلهاب الصراع فيما بيننا . أولم نجد أحد مفكرين الكبار وأعني "عبد

الله القصيمي " في مثل هذه الانحرافات مساراً يطلق عليه عنواناً لكتاب له هو (العرب ظاهرة صوتية) أو لا يقول في مقدمته أن عرب هذه الأيام لو خيروا أن نبلغ الشمس بهدوء ، أو القمر بضجيج ، أو أن لا نبلغ شيءً البتة ، ولكن مع إثارة الضجيج وحده ، إذاً لفضلنا القمر على الشمس، والضجيج وحده على القمر ، حتى مع الضجيج . وانتماؤنا القومي قبل الانتماء العقائدي هو الذي يدفعنا إلى البحث عن سبل تقدمنا الحضاري ، ولكي لا يصبح المستقبل العربي امتداداً للماضي "

هل نحن متخلفون ؟ وقد عرف العرب تخلفهم منذ عام ١٨١٨ على الأقل ، ثم ألا تكفي مائة وستون سنة لزحزحتهم عن هذا الموقع ، علماً أن الغربيين عرفوا تخلفنا قبلنا ف (مونتسكيو) أولاً و(فولتير) ثانياً ينددان بالتخلف العربي ، لا بروح الحاقد الشامت بل بروح من يحاول تشخيص الداء والبحث عن الدواء .

يتساءل الدكتور الجمالي عن بداية التخلف العربي ؟ و في المسألة هنا وجهات نظر كثيرة ، لكنه يقول "فأنا شخصياً أقدر أنه منذ اللحظة التي فقد العربي فيها حرية تقرير مصيره ، أي منذ عهد المعتصم ،بدأ التخلف يدب في جسد الأمة أي منذ عام ٢١٨هـ أو ٨٣٣م "

أما الغربيون ولا سيما المستشرقون منهم يعتبرون، أن التخلف بدأ في نهاية القرن الخامس الهجري ، أو خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، أي خلال أو أواخر الحروب الصليبية. ومن الغريب هنا أن الغربيين استفادوا من هذه الحروب ، ومعظمهم علل التخلف بسببين، وجود الاستبداد والفكر اللاعقلاني في الشرق.

أما مشكلتنا وتساؤلنا : بلغت الأمة العربية الصدارة في العصور الماضية ونتساءل لماذا لم تحقق الشيء نفسه في التاريخ المعاصر. كما أننا لو رجعنا إلى سلوكنا التاريخي نجده لم يشر قط إلى أن الأحداث لم تسر على هوانا، بل أشارت كذلك إلى أننا لم نحسن التخطيط للمستقبل وظللنا إلى حد مفرط أسرى اللحظة الحاضرة ، والعاطفة العابرة ، والنزعة العارضة ، وإن هذه كلها كانت أبرز وأقوى من كل نظرة طموحة مستقبلية. ولئن أخفقنا في تحقيق أهدافنا القومية ، وأصبحنا نحن الأسرى في يد موالينا ، فلا ريب أن لبنيتنا العقلية المتفوقة على – الحاضر – و – الذاتي – أثراً كبيراً في هذا الإخفاق.

ووصفنا الحاضر العربي بالانحطاط لأن العرب أضاعوا وحدتهم ، وبحثنا في أسباب التأخر العربي ، هو ضرورة يمليها الواجب القومي ، أما عبارة الماضي الذهبي خرافة تناقلتها الحضارات.

يرد الجمالي التخلف إلى نظريات عدة ، بررها الآخرون ، كالنظرية العرقية والنظرية الاقتصادية الماركسية والنظرية الدينية والنظريات الأخرى ، ترد التخلف للاستعمار مع أنه ليس أكثر من نتيجة، أو ثمرة للانحطاط ، ولكنه يرد سبب تخلف العرب إلى تضخم الروح الفردية ، وليس علينا إلا ملاحظة السلوك الفردي والجماعي للشعب العربي في مختلف مراحل حياته، أو في مختلف مؤسساته. نقدم شهادة قديمة جداً من التراث يوردها (العقد الفريد) في كتاب الوفود في حديث مشهور بين النعمان بن المنذر وكسرى ، وينتهي الحديث بأن العرب قد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين. وكما نرى بوضوح كيف يعيب كسرى على العرب أنهم يعيشون جماعات متفرقة ، ليس لهم ملك يجمعهم ، أي أنه يعيب عليهم بلغتنا نحن فرديتهم.

أما الشهادة الأخرى حديث جمال عبد الناصر في كتيبه (فلسفة الثورة) إذ يقول : ((وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها ، ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير .. كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر ، وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى ! ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال ، وهدمنا جميع الأفكار ولما كان لنا بعدها ما نعمله ، إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس)) . وكانت أعز أماني عبد الناصر أن يجد مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر، أو لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري. وكانت كلمة (أنا) على كل لسان كأنها هي الحل لكل مشكلة ، وهي الدواء لكل داء.

أما التاريخ العربي فتبدو فيه الفردية على صورة قد تكون فعلاً مفجعة .. ولندع هذه الحوادث المتفرقة الكثيرة التي لا تخلو من مغزى ، كقول أحدهم في اجتماع سقيفة بني ساعده بعد موت رسول الله (ص) : منا أمير ومنكم أمير ، وكفتنة عثمان ، ووقعة الجمل ، وحرب ما بين علي ومعاوية والخوارج الذين سرعان ما ينقسمون إلى فرق شتى ، وقيام ثلاثة خلفاء في آن واحد بعد موت يزيد بن معاوية ، هم عبيد الله بن زياد ، وعبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم ، وهذه الثورات غير المتناهية التي لا تريد شيئاً آخر أقل من انتزاع الخلافة من أصحابها ، واضطرار المعتصم بعزل القواد العرب جميعهم من المناصب ، لكثرة ما كان يثور بينهم من المنازعات، وتأليف فرق تركية مكانهم ، وانقسام الدولة الإسلامية بعد قرنين من نشوئها ، إلى عدة دول ليست أقل من خمس على كل حال ، وتطور التاريخ الأندلسي على نهج يشبه التاريخ العربي في المشرق ، وتعاونهم مع الأعداء على إخوانهم.

ألم يعلل عالم الاجتماع الفرنسي (غوستاف لوبون) سبب ضياع إسبانيا وصقلية إلى انقساماتهم الداخلية.

وإذا نظرنا الآن إلى الأحزاب العربية لوجدناها أحزاباً كثيرة بأهداف واحدة ، كأنه يكفي أن ينفصل الأشخاص في الزمان أو المكان لتنشأ لهم أحزاب خاصة بهم ، أو كأنه لا يكفي أن تأتلف المبادئ حتى يأتلف الأشخاص.

وليس المؤسسات المعنوية بأقل دلالة على هذه الروح الفردية من المؤسسات المادية ، فقد كان العلم العربي والفلسفة العربية حصيلة جهود فردية ، لا أثر فيها لرأي تجمع أو تكتل ، و اذا ذكرنا أسماء كثيرة كالغزالي و ابن سينا والفارابي والرازي و القزويني .. ثم نبحث فلا نجد لهؤلاء أي مدرسة تتابع البحث في مذاهبهم ، أو تردد صدى آرائهم، على حين أنك تجد لكل فيلسوف في الغرب مدرسة قد تعيش عدة قرون بصورة متتابعة . إذن هناك (الأنا) العربية هي السائدة ، وطالما هي السائدة (فالغيرية) قد تكون بالتالي غير موجودة فطبيعي بعد ذلك أن تكون الصفة الثالثة "فقدان الروح الجماعية أو ضعفها ، والميل إلى التناثر وفقدان روح المشاريع أو ضعفها ، وشدة الميل إلى التعديل والتغيير " وهكذا نجد أن(التركيز على الذات) شيء يسم كل صور سلوكنا ، الشخصية والعامة على السواء ، وأنه حتى إشعار آخر ، يمكن اعتبار المسئول عن كل صور التخلف التي نعانيها .

هذه الآنية النفسية ليست مجرد سمة نفسية وحسب ، بل هي فيما أرى المسؤولة الأولى عن تردي الحياة لدينا باستمرار .. فهل من حرج إذا نحن رأينا أننا بأكبر الحاجة إلى معرفة السبب الذي حملنا في الماضي ، ولا يزال يحملنا في الحاضر على البقاء في حدود الآنية النفسية ...

أما أدونيس .. فيرى أن قصورنا العقلي عائد إلى التركيز على الذات ، وسببه عدم النظر إلى الإنسان كموجود بذاته . أما الفكر العربي إذا فرضنا أن العربي يفكر "وهو أن عالم الفكر مقطوع عن عالم الواقع " فكل مفكري ما سمي بعهد النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ولنتساءل هل عرف أحد منا أن أفكار هؤلاء انتقلت إلى الواقع، أو أصبحت جزءاً منه ، أو من البنية العقلية العامة .

وإذا اعترفنا بوجود النزعة الفردية لدينا ، فكيف السبيل إلى الخلاص منها ، ويظل السؤال مطروحاً ونجد الجواب بأن النظام التربوي هو المكلف في تنمية هذه الروح الجماعية ، وللحقيقة نقول بأن نظامنا التربوي لم يحقق نتائج مرضية في هذا الميدان . فلا زال وعينا للآخر وعياً

سلبياً ، وكذلك وعينا للواقع وللزمان والمكان . فهل يستغرب أحد أن يرى صورتنا واحدة لا تتغير ولا تتطور . فليس علينا إلا أن نتمثل العلم الموجود ومع محاولة الإبداع .

أدى التركيز على الذات إلى الانغلاق الشخصي والبعد عن الإبداع، مع أن الحضارة أو النهضة لا تكون إلا بالإبداع . انغلق العقل العربي على نفسه ، وأصبح مجرد تكرار لمأثور ، أو حفظ لمخطوط أو تعليق ، و أصبحت قواه كلها قوى حفظ وتذكر ، لا قوى إنشاء أو تركيز أو إبداع ، و "من المؤسف أن هذا الانغلاق العقلي الذي فقد القدرة على الإبداع فقد معها كذلك كل قدرة على تمثل أي جديد ، حتى تجديد الصادر من الداخل ، لا المستورد من الخارج وخذ على سبيل المثال أسماء لامعة جداً في عالمنا ، كالأفغاني والكواكبي وشكيب أرسلان وساطع الحصري وزكي الأرسوزي و قسطنطين زريق و القصيمي وأمثالهم ، وحاول أن تطرح أي سؤال حولهم لا عن مضمون أفكارهم ، وما ذهبوا إليه في شأن أو آخر ، بل حتى عن أسمائهم ، وأنا واثق أن الأكثرية الساحقة من خريجي جامعاتنا –لا الناس العاديين– سيكشفون لك بكل بساطة أنهم يجهلون من هؤلاء كل شيء "

و في كتابه الثاني (بين التخلف و الحضارة) يعود و يكرر ما قد عرضه في الأول أو في مقالاته ، و يستشهد بقول الفيلسوف الفرنسي (برنيه) أن أصل البلاء هو في استيلاء الحكام على الأراضي ، و انعدام الملكية الخاصة ، و فقدان الشعور بالذي لي و لك. و من هنا نشأ التأخر في الميادين المختلفة ، بينما (مونتسكيو) يعيد انحطاط الشعوب العربية و الإسلامية إلى الحكم الاستبدادي ، أما (فولني) الرحالة و المستشرق الذكي ، الذي عاين بؤس الشرق في الجهالة و العطالة ، يتهم الدين و الحكم الاستبدادي على مثال (فولتير) و (مونتسكيو) ثم يستشهد بآخرين نوجز رأيهم الأول هو في الحروب الداخلية المتصلة ، مع اتهام الدين و الحكم الاستبدادي ، و يعلق الجمالي على ذلك إنه ليس الدين المنزل ، بل هذا النوع من التدين الذي ساد لدى الناس في عصور الانحطاط و الذي سماه (محمد عبده) بالجمود الديني و هو أصل التخلف ، و يعتبره يلتقي مع الغربيين في فهم السبب الأول و يرى تشابهاً بين (الكواكبي) و أفكار (ابن المقفع) في رسالة الصحابة ، و هي أشبه بتقرير نقدي للدولة ، قُدم لأبي جعفر المنصور من حيث أن كل قاضٍ يعمل برأيه بلا ناظم عام أو قانون مثبت . و كذلك تتشابه أفكارهما مع (ابن خلدون) ، أي التشابه ظل كل هذه العصور . هو معجب بـ (الكواكبي) و كتابيه أم القرى و طبائع الاستبداد ، و رأي (الكواكبي) في أن الاستبداد علة كل

تخلف، و يرد عليه بأن بعض الدول كانت متقدمة حتى في ظل الاستبداد كألمانيا الهتلرية. ثم يعود ليقرر في صفحة أخرى أن إنسانية الإنسان لا تتحقق في ظل الاستبداد ، بل في نظام الحرية . و يعتبر وجود إسرائيل و حياتها مرتبطة بالتخلف العربي ، و هي نتيجة من نتائجه ، و يظن المسافة التي تفصلنا عن التقدم هي نفس المسافة التي تفصلنا عن القضاء على إسرائيل . إن إسرائيل و التخلف العربي وجهان لحقيقة واحدة . ثم يعود ليطرح السؤال " هل نحن حقاً متخلفون ؟! و إذا طال علينا التخلف فمرد ذلك على أن الإنسان العربي ظل خلال كل هذا التاريخ مطية لا غاية ، و أداة لا قيمة ، و عبداً لا سيداً . هو بشكل أوضح يتهم العربي بأنه يعيش في ازدواجية ليس أمامه غير الإرادة الحرة ليكون إنساناً له حق الاختيار .

و في رد غير مباشر ، يرد الجمالي على من يجد الحل في المنظومة العقائدية و التي بدونها لا يحصل التخلف ، بأن اقتراحهم ساذج بل القضية في الإنسان ، و علينا البحث عن سر التخلف العربي بعد التقدم و التي طالت ألف عام .. صحيح أن بعض مفكرينا عزى السبب كـ (الكواكبي) إلى الاستبداد ، و (محمد عبده) إلى عدم وجود العلم و الثقافة .. لكن الجمالي يعتبر الموضوع الذي يعالجه هو موضوع التخلف الطويل الذي عشناه سابقاً و مانزال نعيش فيه .. و هو يرد على من قال إن سبب التخلف هو الاستبداد السياسي ، إذ وجد عصور النهضة ، و التقدم كانت عصور استبداد ، لا عصور حرية، و هنا تبطل دعوى (الكواكبي). و أما دعوى الأمير (شكيب أرسلان) في كتابه : لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم ؟ إذ أنه يرد الأمر إلى الدين الإسلامي ، فإنه يركز بعد ذلك على ضعف روح التضحية لدى العرب ، و يعيده الجمالي إلى باب التركز على الذات ، و التي عددناها في المحور السابق . و على الشعب الارتقاء إلى المستوى الأعلى حضارياً ، فمن العبث انتظار القيادة لصنع المعجزات ، و حتى القيادة أحياناً ستصطدم بجدران التخلف العام الذي يفرض عليها رعاية قيم ليست هي في الواقع قيم العقل و الكفاءة .

حين قرأ الجمالي تاريخنا ، و صل إلى النتيجة التالية " إن غياب الشعب المتواصل عن ساحة العمل العام و انفراد القادة به ، لم يؤد على طول التاريخ إلا إلى ما انحدرنا إليه باستمرار من تبعية و تخلف " و يرى العامل الحاسم في الضعف العربي ، هو تخلفه على كل المستويات الحضارية .. و يقدم معادلة عن الغزو الصهيوني و نجاحاته بعد تعداده العوامل التي أدت إلى ذلك ، إذ يعتبر العامل الحاسم هو أنهم – أي الصهاينة – استطاعوا تمثل الحضارة المعاصرة في أرقى منجزاتها الحضارية . و في جانبنا وجد أن العرب مازالوا دولاً شتى ، و التعبئة في أدنى

حدودها ، و فقدان التنظيم الموحد على مستوى الأهداف العليا ، و ليس هناك عقيدة نضالية واحدة تلعب دوراً موحِداً ، كدور المنظمة الصهيونية .. كذلك فقدان الفكر العربي العادي للحس التاريخي الذي يعيش بلا تاريخ و يخلص للقول : إن طاقات الفكر العربي أكبر بكثير من منجزاته الفعلية ، و إن العائق الوحيد دون تفتح هذه الطاقات ، هو الهامش الضئيل من الحرية المتاحة له ، فإما الحرية و المستقبل ، أو اللا حرية و اللا مستقبل و أنهى قوله : و لكن مستقبل أمتي يؤرقني . و عندي – أي الجمالي – أن هنالك مجموعة من العوامل أدت إلى التخلف منها ضعف مستوى القيادات ، و فقدان الحريات المشروعة و حكم المستبد ، و خوف المواطن دوماً من السلطات القائمة ، و فقر الأرض ، و قلة المطر و غيرها و لكن بصورة خاصة كثرة التنازع بين فئات المجتمع ، أو بين أجزاء الأمة الواحدة [حتى يصل] إلى القول " و من هنا نصل إلى توزيع المسؤولية بين الشعب العربي و حكامه الغرباء رغم وجود مثل صلاح الدين الأيوبي و نور الدين " .

هو – أي الجمالي – لا يعرف أن هناك دراسة جدية لحل هذه المشكلة ! و لا يجد أية خطة جدية لبعث قومي أخلاقي ، يعيد إلى الإنسان العربي مقومات وجود سليم ، هو عاد إلى نفسه مرة أخرى ، في إلغاء الآخر ليمهد السبيل إلى ما يعيد تساؤله ، فكل هذه الدراسات – و برأيي في معظمها حلول جريئة – لم يشاهدها تفيد بشيء إلا دراسته هو ! حتى إنه نوه (بعجز) الآخرين فإنه أيضاً يقع في (المطب) ذاته في عجزه عن إعطاء الحل الأمثل و الذي أراه [فايز] شخصياً أولاً – في أننا ننظر إلى الحل من خلال تجربتنا الذاتية فقط ثانياً – ننظر إلى العالم و كأنه لنا فقط و ليس للآخرين ثالثاً – غلبة الروحانية – و المثل العليا على مجتمعنا ، و التي تؤخر سلفاً حلولنا ، و لتكون بلا حل رابعاً – ضعف مستوى الحرية و النقد الذاتي لدينا .

نعود إلى الجمالي الذي يبرهن على التخلف العربي في كل المستويات ، بل يتوقع مصائب أخرى ، و الحل هو ضرورة نقل الحضارة أو الحاجة ، وإلى نقل الحضارة العالمية مادة و روحاً و هي جملة العلوم الحديثة و تطبيقاتها و كسب الإرث الحضاري و المهم ليس منتجات العقل ، و لكن هو العقل نفسه .. و في دعوته إلى نقل روح الحضارة ، فإنه لا يعني إلا امتلاك صفات الفكر العلمي .. و كذلك يضيف سوء التنظيم كظاهرة أساسية من ظواهر التخلف ، و كذلك عدم قيام الحكومات الديمقراطية .. إننا نتفق معه فيما آل إليه الواقع و أسبابه ، و كذلك مع ملاحظته الأخيرة و كما يقول إن علة التخلف العربي تكمن في تناثر الروح الجمعية ، و اللاإجماع على

الإيمان بمنظومة قيم أو مثل عليا ، جامعة و هو قد اعتبر البلاد العربية تنقسم إلى فريقين : فريق ينتظم سلوكه العام ، على أساس عقائدي ، و فريق لا ينتظم سلوكه بأي أساس من هذا النوع ، معتبراً عامل التطور الأول هو الإنسان ، و أن العرب لولا متخلفين قسراً بحكم القهر الاستعماري ، و إن كان هذا الرأي بعيد ، إذ جاء نتيجة التقدم العلمي .. و لعل العرب قد تخلفوا منذ زمن ، يرجعه إلى زمن الحروب الصليبية ، و التي وقف منها الغزالي موقف المتفرج ، و لم يأت على ذكر الحروب الصليبية ، و مآسيها بل دعا إلى الصوفية بدلاً من الضرب على الغازين ؟! و يستخلص الجمالي أن التخلف العربي أصيل ، نابع من الذات ، و ليس بدخيل و كذلك يقول إن التقدم العربي كان هو أصيلاً ، نابعاً من الذات ، و ليس بدخيل ، فكأننا غير مدينين لغيرنا ، بشيء ، لا في حالة التقدم و لا في حالة التخلف " رغم الأمثلة التي يقدمها على تكرارها ، فإنه يقع في (حالة بين بين) لماذا ؟ أهو القصور عن التحليل ، أو عدم الجرأة ، لا هذا و لا ذاك ، فهو كغيره من المفكرين العرب الذين لم يصلوا إلى اتفاق مشترك على ما هو من الضروري أن يكون مشتركاً !!

هو يرد على نفسه مرة أخرى ، أن خصوصية التخلف العربي تدعونا إلى البحث عن تعليل خاص أيضاً ، و يجده في غلبة غير العرب على العرب ، و العصبية القبلية و التي أدت إلى اعتبارها المطلق الأول ، والذهول عن العمل الجمعي و كما أوضحنا في المحور السابق خصائص الشخصية العربية . إن علة التخلف العربي تكمن في تناثر الروح الجمعية ، و اللاإجماع على الإيمان بمنظومة قيم أو مثل عليا ، جامعة ؟

في عام ١٩٥٦ عقد مؤتمر قدم فيه (برونشفيل) المستشرق دراسة عن التخلف العربي ، و يتساءل غيرنا يدرس تخلفنا و نحن ذاهلون عن ذلك فما السبب ؟! و في بحثه القيم بعنوان " مشكلاتنا القومية " أصاب كبد الحقيقة في كل ما قدمه هذا البحث ، و في جرأة فلّ مثيلها ، مشيراً إلى ظاهرة عزوف الباحثين و المفكرين عن التصدي لمشاكلنا القومية ، و الإفاضة في بحثها ظاهرة غريبة و غير غريبة معاً .. و أن من يريد معرفة وقائع حرب حزيران ١٩٦٧ لوجد بغيته في المصادر الأجنبية أكثر من العربية .. و إذا أراد أحدنا الكتابة في هذا الموضوع ، سيتعرض لحساسيات كثيرة ، قد توره موارد الأذى ، و أظن أن هذا من بعض مشاكلنا ، و لعله في اللب منها . و وصل إلى أن بداية الحروب الصليبية عام ١٠٩٥ يجب أن يكون بالضرورة علامة على فساد كبير أصاب الأمة العربية .. و يعني هذا أن التخلف عن الأمم الأخرى ، أمر يزيد على ألف سنة .. " بل يصيب سهمه جوهر الحقيقة بقوله " و نظن من النادر جداً أن

تصاب أمة بهذا النوع من العقم خلال هذه المدة الطويلة ، التي لم تخرج منها بعد . " و أول المشكلات هو هذا الانحدار الكبير الذي أصاب وجودنا القومي ، في مختلف جوانبه .. بل إننا نعيش متخلفين عشرة قرون كاملة ، و لا يشعر أحد أن هنالك حاجة جدية لبحث هذا التخلف ، و أسبابه ، و مقدماته و عوامله .. و لا أحد يعرف متى نستطيع التخلص منه . يعود الجمالي إلى تكرار قوله في أن مآسينا الثلاث لهذا التخلف تسمى إحداها مأساة الحاضر ، بالقياس إلى الماضي .. بعد أن كنا سادة أصبحنا " هزيلين " جداً و الفضيحة الثانية ، فهي مأساة حاضرنا بالنسبة لحاضر الأمم المتقدمة المعاصرة ، فأين نحن ؟ و أين هم ، و كم الفرق كبير بيننا .. و أما الثالثة ، أي مأساة الواقع بالنسبة إلى الممكن ، فواقع العرب ضعيف و لكن لديهم كل أسباب القوة .

٥ – **المستقبل** : و ماذا بعد الفردية يمكن أن نصل إلا إلى الانغلاق الذاتي الكبير ، و لكي نمسك بزمام المستقبل يقترح علينا الجمالي الثورة النفسية بالدرجة الأولى ، ليصبح معها الانغلاق انفتاحاً .. و يضرب مثلاً مرة أخرى بعمر بن الخطاب – مثله الأعلى – و سر عظمته فيه – برأي الجمالي – أنه أخضع فرديته ، لمصالح الآخرين .. و السر الخفي أن الشعب العربي قلما حكم بعقلية تحسن التخطيط للمستقبل و تخضع التاريخ لإرادتها . و لا يعوزنا القيم – برأيه – بل هو الإنسان الذي يؤمن بهذه القيم و يخلص لها ، و يعمل حقاً من أجلها . و لكي يتم الوعي العربي ، عليه قراءة التاريخ الغربي ، طمعاً باستقراء سمات الشخصية التي صنعته و كانت وراءه لرسم أحداثه ، و تعين له خطوط تطوره ، و التي هي سمات شخصية مضيّعة ، فقدت حريتها ، و أضاعت كرامتها ، و نستبدل المعادلة التاريخية ، بتربية مخططة على المستوى القومي المعني بالمستقبل الطامح – و برأيه – بداية الوعي العربي تكون في امتلاك هذه الصورة عن الماضي و تعميق فهمها ، و ملاحظة آثارها ، ثم يتبعه إرادة التغيير ، تغيير هذا الماضي .. إننا لا نخطط جدياً لمستقبل حضارتنا ، و لا نقدم لأجيالنا المناخ الذي يؤهلهم للاعتماد عليهم في بناء هذه الحضارة . لنبدأ بتحقيق المواطنة في أساسياتها ، و إذا ظل الانسحاق الخارجي و الداخلي ، فلا مجال لأي طموح يمتد إلى المستقبل ليتحكم فيه ، و اعتبار الحاضر جسراً للعبور من ذلك الماضي إلى المستقبل . يقدم الجمالي أمثلة واقعية عن طرحه هذا في " أن مجابهة إسرائيل لا تحل بمجرد تجميع القوى الجاهزة أو الممكنة ، بل إلى تجديد حضاري كامل .. و لئن كان علينا أن ننشئ حضارتنا الجديدة " ، أو أن نساهم في بناء الحضارة ، " فإن كل مؤسسات

الماضي التي أورثتنا التخلف ، يجب أن تفحص بعناية ، لكي نعرف لماذا أدت إلى تخلفنا ".
يدعو الجمالي إلى فكرة الجهاد الأساسية ، و هي إشغال الحاضر بالمستقبل إشغالاً متصلاً ، لا هوادة فيه .. لكن المشكل برأيه حدوث صراع بين الطبائع المتأصلة في النفس العربية ، بحكم حياتها القبلية القديمة ، و بين ثمرات التربية الجديدة ، و سوف يكون المستقبل حصيلة هذا الصراع .

في المحور السابق الزمن أوضحنا صورته عند الجمالي لكنه هنا يقول " عندما ينتظم الزمان للإنسان ، و ينفسح له بعد المستقبل ، و يكون له عقائديته ، ما يلزمه بالمستقبل أكثر مما يلزمه بالحاضر ، فإن التاريخ يبدأ حركته ، في حال تجاوز الآنية للامتداد في المستقبل .. و شتان بين إنسان يصنعه التاريخ ، و آخر هو الذي يصنع التاريخ ، و يضرب مثلاً بالمهاجرين الأوروبيين من أدنى المستويات إلى أستراليا ، لكنهم أنشؤوا شيئاً جديداً عن إنكلترا و برأي – فايز – السبب الأول هو البيئة الجديدة التي استدعت التحدي و مواجهة الواقع المر ، و الثاني هو وجود الطموح ، فليس كل مهاجر سيء ، بل هناك نفوس طموحة تتحدى .

و يصل الجمالي إلى النتيجة ذاتها و هي " أن من ينغلق على المستقبل ينغلق على الماضي بالقوة نفسها ، كأن عينيه لا تطلان على إحداهما إلا بمقدار ما تطل على الآخر . و إذا حصل التناقض فلا ريب أن ذلك سيدعونا إلى إعادة النظر في سلامة منطلقاتنا .

إن الإنسانية من أي لون كانت ، بحاجة متصلة إلى انفتاح لأمتنا على المستقبل ، و متى تحجرت الإنسانية في حاضرها ، و جعلت كل صور مستقبلها مجرد تكرار لهذا الحاضر ، لا تفتأ تعيده ، جيلاً بعد جيل ، فإنها لن تعرف أية صورة من صور التقدم ، و ستنقلب حياتها موتاً ، و بالتالي فإن ما جاء ليسد نقصاً واضحاً في الذات العربية ، سيظل بحاجة إنسانية متمادية ، فما من شعب يمكن أن يشكو من شدة الانفتاح على المستقبل ، و لكن أكثر الشعوب تشكو من شدة الانغلاق على الحاضر ".

٦- **صورة الطريق :** يؤكد لنا أستاذنا الجمالي صدق نيته بل هو يحذو رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بقوله " إن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم " و يؤكد الجمالي أن صدق النية هو العامل الأول و الأخير في النصر ، و يعتبر منطلقاته موضوعية ، و هذا الحاضر هو ابن الماضي ، و لا يعلل إلا بأحداث الماضي ، رغم أنه معقد جداً ، و نحن في أزمة ، موجودة موضوعياً .. و هل نحن في وسعنا بناء حضارتنا الجديدة إن لم نصل إلى أن الهم الأول هو الإنسان لا غيره و هو أداة الحضارة ، و بقدر ما يملك من الحرية يتألق في

التاريخ . مشكلتنا بعد إسرائيل هي مشكلة التخلف .. لكن المشكلة لم تعد كسب الحضارة بقدر ما أقول لماذا لا تؤتي جهودنا كلها ثمارها ، و لعل وراء ذلك مشكلة أعمق ! و المشكلة الثالثة مشكلة التراث القومي ، و استبقاء الصلة به ، و العمل على تعزيزها . و في مقال آخر اعتبر تراثنا العربي جزءاً لا يتجزأ من شخصيتنا ، لا لمجرد الاطلاع عليه ، بل لنعرف به عن أنفسنا ، و صور عبقريتنا و نحن نوافق أستاذنا الجمالي في ذلك فليس هناك أمة بلا مثل تستمدها من تراثها و توقظ فيها الحياة لا أن تميتها ، و في بحث آخر لا يعتبر التخلف هو المشكلة الأولى بل المشكلة الأولى هي كسب الحضارة .. و أول ضرورة هي أن نبتعد عن أنفسنا قليلاً و ننظر إلى ما نفعل ، مقارنين دوماً بين ما نفعله هذا الـ " نحن " و بين مقتضيات المبادئ التي نقول ببراءة " إننا نعتنقها و نعمل بوحيها و ليس عسيراً بعد ذلك أن نكتشف تناقضات كثيرة بين ما نعمل و بين ما ينبغي أن نعمل " الجمالي هنا يعتبر نفسه قد اكتشف التناقضات و قد يكون قد وجد لها الحل الأنجع !! و حول الوحدة فهو لا يريدها كما كانت في عهد بني أمية ، بل يريدها وحدة شعب عربي في أكثريته الساحقة ، و الدولة المرشحة لحمل هذا العبء هي مصر أو سورية . الحقيقة أن المفكر العربي يقع في حيرة كاملة ، عندما يفكر بهذه المشكلة ، و يظل متصل التساؤل حول هذه " النحن " من غير استجابتها للمواقف . – و كما عرضنا في المحور السابق قوله – (في ذات الوقت نملك كل مقومات الحضارة) هو يعيد نفسه مرة أخرى .. المشكلة بنظره فيما يسميه باليقظة العربية ، التي ينبغي ألا تكون وعي الجماهير وحدها ، بل وعي القيادات بالدرجة الأولى ... و أن أرقى المجتمعات التاريخية ، قديماً و حديثاً ، هي كذلك أكثرها حرية . و يظن الجمالي أن الحياة العربية وقعت في الماضي في كل صور التزييف ، و يطالب بإلحاح بشيء من الطهارة و لو بالفتات ، على أضعف الإيمان . و في مقال آخر يقول " من طبيعة كل شعب ، متى أصابه الانهيار ، أن يزداد تعلقاً بماضيه ، و أمجاده القديمة ، لا سيما إذا كان في تاريخه ما يقدم لهذه الأمجاد ، سنداً موضوعياً . " إن كل ما طرحه فيه بعض القبول لدينا ، لكنه يقع في تناقضات حين يقول إن غير العرب هم الذين حكمونا ، أو لهم الفضل في تحريرنا ، ثم ينكر فضلهم لأنهم غير عرب ، و آخر من يستشهد به " محمد علي باشا الكبير " الذي طمع في أن ينشئ لنفسه – على كونه غريباً عن العروبة – بل كان يمنح من مشاعر قائمة في بلده ، و البلاد المجاورة له .. أي يجسد روح عربية عامة ، لم يخلقها هو بل تبناها .

و من مشكلاتنا مشكلة التراث القومي ، و استبقاء الصلة به ، و العمل على تعزيزها . و ما قد دعا إليه في موقفه من التراث العربي إلى دراسة اللغة العربية . و لكن هذا ليس لب المشكلة بل هو يدعو إلى تحليل التراث ، و عملية الانتقاء ضرورية للثروات الجدية فيه ، تل معروضة للبحث . و لئن كان التراث يعصمنا من الانحلال ، فإنه ليس وحده الذي يرتقي بنا لمواجهة الأخطار ، لذا بدأ الجميع يستعيض عن القيم الخارجية القديمة بقيم خارجية حديثة . و لكن الإشكال الذي لم يحسمه الجمالي هو ماذا نختار من تراثنا ؟ هذا الطرح استطاع (د. زكي نجيب محمود) التطرق إليه في كتابه المعقول و اللا معقول في تراثنا . و إن كنت أميل إلى القول بأن عملية الانتقاء لن تتحقق بدون وضع الهدف قبل الرجوع إلى الماضي ، و هذا تحدٍ يعتبر الأقوى يواجهه كل مفكر لدينا ! فالحضارة اليونانية قد بنتها عقيدة نراها تافهة ، لكن الإيمان بها يحقق الحضارة ، لأن الإنسان هو عامل التطور الأول . يدعو الجمالي إلى التسارع في ركب الحضارة ، لأن كل شيء في العالم يتحرك و بسرعة ، فالمجتمع المعاصر ، شديد التعقيد ، متعدد الفعاليات فهو مجتمع الجماهير العريضة ، المطالبة بحقها في الحياة ، و على الفرد الاستجابة لضرورات الحضارة ، و ليكون فردية الوجود ، اجتماعية القيمة ، برعاية تشمل حق الإنسان في الحرية ، و الكرامة الفردية ، و الاطمئنان على المستقبل ... و حق الجماهير العريضة ، لا يعني شيئاً ، إذا كنا نستخدمه كشعار غامض ، نستند إليه بصورة رمزية ، لإلغاء حقوق الأفراد . إذا كان المواطن في الماضي رعية لا يؤبه لها ، و أن الملك لم يكن قوياً إلا على رعاياه ، إلا أنه هو و رعاياه ، كانوا ضعفاء جداً تجاه الآخرين .

و يرى الحضارة هي جملة العلوم الحديثة و تطبيقاتها . و إذن فلابد من كسب هذا الإرث الحضاري الذي انفرد الغرب وحده بتطويره حديثاً . و لكي ننقل روح الحضارة ، لابد من امتلاك صفات الفكر العلمي في مختلف المستويات .. لنتساءل لماذا استطاع الغرب أن يتقدم دون أن يحتاج إلينا . و المشكلة كذلك لماذا لا تؤتي جهودنا كلها ثماراً ، و لعل وراء ذلك مشكلة أعمق تتعلق بكياننا الاجتماعي كله ... أدت إلى عقم كل جهد مقبل أيضاً .

يقترح الجمالي فلسفتين لصورة الإنسان ، تلك التي ترى أن السلطان وحده هو القيمة ، و الغاية ، و المطلق ، و أن كل الناس رعية و أدوات ، والأخرى ترى الإنسان يرفع إلى مستوى القيمة ، فيكثر عندئذ عطاؤه ، فيصبح القوة التي نريد ، و الحضارة التي نتمنى ، و لكن أية حضارة يريدها الجمالي ؟! هو يرى رأس هذه الأخطاء اكتفاءنا باستيراد صورة جزئية ، من الحضارة العالمية ، لا باستيراد هذه الحضارة ، في جوهرها و أعماقها [و لا يهمه النظام وراء هذه

الحضارة بل يهمه الإنسان و القضية عنده هي نوع الإنسان الذي يطبق هذا النظام] و حول تأليه الدولة فموقفه منها إنها " لا تستقيم إلا حيث تمثل هذه الدولة جملة القيم الروحية التي تريد للمجتمع استمرار التقدم ، بنواظم مثالية تضع الأمور في مكانها الطبيعي . أتى الجمالي – كما يقول – بصياغة جديدة تتكلم بلغة العصر ، لتتوضح الرؤية على تحقيق أمثل لطموحاتنا الأصلية . هو يدعو إلى تخلي العربي عن جاهليته ، و عصبيته القبلية ، أي عن انغلاقه على نفسه ، و أن يشغل نفسه بالمستقبل ، و سيكون هذا المستقبل في حالة صراع بين الطبائع المتأصلة ، لإيجاد وسائل لخروج الإنسان من ذاته ، و الانفتاح على الآخرين و يقدم مثلاً أن العربي خرج من ذاته الجاهلية لينشئ دولة تجمع كلمتهم بعد ظهور الإسلام ، أي أنهم ربوا على الخروج من إطار ذواتهم و تجاوزها ، كما ربوا على الخروج من إطار الحاضر ، و تجاوزه إلى آفاق المستقبل .. لكن العرب عادوا إلى انغلاقهم على ذواتهم و بعد القرن الرابع – في الحقيقة فإنهم كانوا جميعاً صوراً متكررة لشخصية واحدة .. و يرد على من يظن الحل بيد الحاكم ، " فالقضية في مجموع الناس لا في الحاكم وحده " و لا يريد المواطن عبداً أو زاهداً في الدنيا .. هو يريد إنتاج الحضارة فعلاً في نهاية كتابه الأول . و في بداية كتابه الثاني يقول إننا حيارى في داخل أنفسنا ، لا نعرف أية عقيدة هي المنقذة ، و أصبحنا نستورد ، و من الصعب أن تكون عربياً أولاً .. هو يؤكد أن الحضارة ليست كمالاً لنا ، بل ضرورة دفاعية ، و لأننا نملك خلافاً لأكثر الشعوب المتخلفة ، كل ما ينبغي لتمثل الحضارة .

و نتساءل هل نملك المقومات الروحية و العقلية الضرورية للحضارة ؟ لم يتمكن الجمالي – برأينا – من الجواب الموضوعي ، إذ عاد ثانية لتعداد السلبيات ، فكيف نحن غرقى في التخلف و لم نتقدم بسرعة كغيرنا !! و اعتبر تعريف التقدمية بـ (القيمة الإنسانية) و جعلها هي الأساس في القانون الأخلاقي و الاجتماعي ، و أن تكون مراكز التوجيه العليا في أيدي أناس تتوفر فيهم ، لا وجاهة النسب و نفوذ المال ، و لا طغيان القوة ، بل تتوفر فيهم العقول النيرة ، و الثقافة الغنية ، و الخبرة الذكية . و لن يتم القفز فوق المصاعب إلا بقفزة نوعية فوق هذا الواقع المتزايد الرداءة ... و لنقل ما من شيء تطور إلا المظاهر الخارجية ، أما التقدم الحق فإنه تمنّع ، و أما التخلف فهو الشيء الوحيد الذي لم يتصدّع .

كان متفائلاً أنه بعد هزيمة ٦٧ ستتحد دول المواجهة خلال أسبوع أو أسبوعين ، بحكم غريزة الدفاع عن النفس ، و لكنه بعد سنتين لم يجد حتى شركتي طيران اتحدتا ، أفليس هذا عجيباً غريباً ؟ يرجع ذلك أن العقول المختلفة ليست مهيأة لحل المشكلات ، حتى السهلة منها ، فكيف

بالصعبة ؟ إن البلاد العربية تنقسم إلى فريقين : فريق ينتظم سلوكه العام ، على أساس عقائدي ، و فريق لا ينتظم سلوكه بأي أساس من هذا النوع .. هل التطور اختلف بينهما ؟! لكن المهم التجاوب بين إيمان القيادات ، و إيمان القواعد الشعبية ، و ما لم يتم هذا التجاوب فإن إيمان القيادات يظل بلا جدوى ..

ما هي عناصر المشروع القومي في رأي الناس ؟ لا نستغرب إذن أن يخفق المشروع القومي العربي ، لا لأن الصعوبات كبيرة من حوله فقط ، بل لأن القيمين عليه لم يهيئوا له شروط النجاح .. هو يدعو إلى أن يصبح المشروع الثوري ، مشروعاً عقلانياً ، يستوفي كل شروط النجاح . كما أنه يحذر من أن تصبح الثورة و اللا ثورة متساويين في الأداء . و لا يدري الجمالي " أي سبيل نمضيه تكون نهايته الوحدة ، هل هو في قيام ثورات تحقق الأهداف ، و هذا تم و لم تحقق الوحدة ، أم الحزب الواحد .. و هذا لم يتحقق . إن من يقرر مصير الوحدة هو الشعب العربي إن كان حراً في تقرير مصيره .. " إن " فرجة الحرية " [هكذا يعبر الجمالي] المتاحة للإنسان ، هي التي تحدد نوع الحضارة التي يستطيع بناءها " نتفق معه بالرأي و نتحفظ عليه بالقول ، لو ملك الحرية فهل يملك مخزونها الحضاري الواحد فهذا مستحيل الآن !! و اعتبر الجمالي التقدم الحضاري لن يخطو أشواطه إلا بالديمقراطية ، و اتهم مفكرينا الذين تصدوا سابقاً و الآن لمعالجة مشكلتنا الحضارية ، لم يأت أحد لجمعها و رصدها – و هاأنذا أحقق رغبته برصد آرائه – في إطار دراسة عامة .

ختام القول : بعد عرضنا هذه المحاور الست في فكر أستاذنا د . حافظ الجمالي ، ألا يجدر بنا معرفة هل هو قد أصاب كبد الحقيقة التي ينشدها ، و الطريق الذي ستسلكه الأمة في مسارها الحضاري ، و ما هي الحلول التي طرحها لجيلنا ، كي لا يكون خارج التاريخ ، بل في عمق التاريخ . هو من الأقلاء الذين أعطوا حلولاً ، إذ وجدنا الكثير من المفكرين من يعرض الداء ، و لا يقدم الدواء ، و هذا مؤشر خطير في حياة أمتنا ، لم يشر إليه الجمالي ، و إن كان هو قد خرج عليهم ، و بجرأة متناهية ، مرة هو عميق في جرأته ، و مرة هو بسيط في حله ، فهل الذي يمنعه من ذلك الأصنام الفكرية و السلطوية !! هو في نقده البناء و غير المتماسك ، قد شق الطريق لنا ، كذلك هو قد عبر بوضوح عن غيرته الدائمة على أمته ألا تتردى ... لعل أهم الحلول التي قدمها تكمن في القضاء على الفردية ، لتكون في صالح الآخرين ، صحيح أن عمر بن الخطاب برأيه أكبر الناس فردية في التاريخ كله ، لكنه أخضعها لمصالح الآخرين .. و

المشكلة هي التربية التي ستجرد الناس من تميزهم الفردي ، للصالح العام ، و هي أهم وظائف التربية " و في مقال آخر قال " الفناء في خدمة الآخرين "

أما عن العلاقة بين الفرد و المجتمع ، فتتميز أكثر في طغيان السلطة ، و ضعف شأن الأفراد ، باستثناء لحظات في تاريخنا (عهد النبوة و الراشدين) ، و كانت الفجوة بين قيمة السلطة ، و قيمة الأفراد ، تعود فتصبح كبيرة جداً . إن ما يقدمه هنا يتناقض و ما قد طرحه ، بتميز الفرد ، و لم يوضح لنا علمياً هذه الحقيقة السيكولوجية ، و هي علاقة الفرد بالسلطان في حال طغيانها ، أياً كان شكلها ، هو يمس جوانب الحقيقة ، و ليس جوهرها !! و الحل برأيه دخول الفكر إلى حياتنا ، دخولاً حقيقياً .. و أن يخرج الإنسان من ذاتيته ، و ينشئ تيار الحوار المتصل .. " و كيف سنحقق هذا الحوار إذا كان الجمالي قد قال إن الطبع العربي – كما يرى هو – موغل في الفردية و ينفي الآخر .. " بل يقدم لنا مثالاً غريباً على هذا القول بوجود الأنبياء في منطقتنا ، و ليس لهم مكان آخر في الدنيا ليقول " ألا يدل ذلك على أن العربي أولاً ، و السامي (١) بوجه عام ، لا يسهل عليه الخضوع لقوانين وضعية "

في مقال له في مجلة المعرفة بعنوان " الثابت و المتحول في العقل العربي " مستعيراً عنوانه من كتاب الشاعر أدونيس الذي يؤكد أن حلة القداسة التي كانت في الأصل للدين ، قد لبست كل شيء في حياتنا حتى اللغة .. و أن الفكر الإبداعي لم يكن متحولاً في الحقيقة ، بل تحول بتغيير سطحي ، على حين أن الإبداع تغيير في الأعماق ، أو إنشاء بنية جديدة تماماً من مختلف عناصر البنى القديمة . الحصيلة يظل الانتقال من ثابت ما إلى ثابت آخر ، لا يختلف عنه إلا بصورة شكلية لا نوعية . و عندي – أي الجمالي – أن المتحول يجب أن يكون قفزة إبداعية ، تتجاوز الماضي ، لا باختلاف عنه بالضرورة ، بل بالقفز فوقه ، و إغنائه .. و التحكم فيه لمصلحة الإنسان نفسه و بهذا وحده يمكن أن يملك المتحول قدرة على التجديد لا يملكها الثابت ، أي قدرة على التكيف مع الواقع ... " و في مقاله هذا يقول أنه يغامر بفرضية أساسية هي القول بأن " أية ثورة ناجحة يجب أن تكون ثورة العقل ، لا ثورة الشعارات المتسامية .. " لكني لا أتفق معه في هذا الذي وصل فيه إلى القول " لقد كان الإسلام دفعة ضخمة في اتجاه العقلانية ، و كان ثورة حقيقية ، و من سوء الحظ أنه طغى عليه (الثابت الغيبي) و الصوفي و أشكال لا حصر لها من التفكير اللا عقلاني و مايزال يطغى .. " نقولها و بصراحة أن الإسلام كان ثورة شعارات طغت عليها العاطفة ، و ليس العقلانية كما يقرر أستاذنا الجمالي !!

و في العناوين الأخرى التي نشرها في جريدة (الثورة) السورية سنجد الجمالي يريد الخير لأمته و إن كان ينقد مسيرتها الحضارية التي وجدها متراوحة ، و نتقدم من طرف و نتخلف من طرف ، و أين تكمن المشكلة في نقل الحضارة أم في شروط الحياة ؟ و السلوك الحضاري في لا تاريخية التاريخ ، و العقل البشري يسقط في المراوحة عندما يصاب بالعقم الحياتي ! لكي لا يصبح المستقبل العربي امتداداً للماضي ، و أن نسير نحو نقطة انطلاق جديدة للخروج من التخلف . المطلوب تحقيق التوازن القومي بين العقل و العاطفة . إنها تساؤلات مطروحة أمام المفكرين العرب ، تساؤلات غير مريحة ، من لا يصنع التاريخ يضيعه التاريخ. هل التخلف العربي تاريخي أم عرضي ؟ العقيدة مسألة " نسبية " و " المطلق " تلبية حاجات الشعب ، و هل يمكن تحقيق التوازن بين الواجبات و الحقوق ؟ الإنسان أولاً هو صانع التاريخ و المشكلة الأولى كسب الحضارة . مرة أخرى يضعنا الجمالي في حيرة من موقفه (الأمثل) حيال مشكلاتنا ، و سبل نهضتنا ، و الرؤيا المستقبلية لأمتنا هاهو ثانية يغلق الطريق أمامنا بقوله ((أننا لا يسهل علينا الخضوع لقوانين وضعية)) ، و ردي عليه أننا أولاً نذهل عن الواقع لغلبة العاطفة علينا ، و إيماننا الدائم بالغيب و ثانياً – لا نتلاءم مع الواقع ، في حال تبدل شروط الحياة بسهولة ، كما يفعل الغربي ، لتمسكنا بالقيم المثالية و الدينية أكثر منه . و ثالثاً – أننا لم نتدرب على الروح العلمية – الموضوعية في تربيتنا التي يغلب عليها القسر و الإكراه أكثر من الحوار و الإقناع . و أنا لا أتفق معه في قوله تحت عنوان جانبي (التردي المستمر) إنه رغم تسميتنا النهضة العربية في أيامنا علينا الاعتراف بأن الشعور القومي يهبط باستمرار على مستوى بعض القيادات العربية .. " و أننا عاجزون عن تعبئة القوى العربية إلى مستوى المعركة .. " جوابي له لنسأل عن أسباب هذا الهبوط ، أليس هو تيار جديد دخل حياتنا ما يسمى بـ المادي الزائد ، و العولمة ، و ازدياد الهجمة على شخصيتنا من قبل أعدائنا ؟! إضافة إلى إخفاقاتنا !! و أكبر الإخفاقات عدم وحدتنا ، و التي هو أشار إليها " لأننا نفاجأ من فوق بإرادات ستاتيكية تصر على أن تبقى الدنيا كما هي ، كأن قدراً علوياً يفرض عليها أن ترث التخلف ، و أن تورثه .. " هنا الجمالي أصاب ، و لكنه لم يقل إن مجتمعنا مصاب بدوار الجمود حول المركز دون الانطلاق من المركز ، فهو يدور ، و يظل يدور ليعود إلى النقطة ، لا أن تتفرع هذه النقطة إلى نقاط حضارية تشع على من حولها ، كي لا ندور حول التاريخ ، بل لنصنع الحدث فيكون التاريخ تاريخنا . هو قد قال في مقال آخر: ((أن الحقيقة عنده هي أن القضية قضية انحطاط تاريخي ، قلما تساعد الأنظمة على التخلص منه .. و أن كل عمل

يحتاج إلى زمن و الزمن هو المستقبل " لم يوضح لنا آلية الزمن المستقبل ، بل وجدناه قد (كبله) أو (أسره) التاريخ في جانبه السلبي ، غير الإيجابي ، و إذا صح ذلك ؟ أليست الأمم الأخرى قد تعرضت إلى محن ؟ و مع ذلك تجاوزتها و انطلقت نحو المستقبل ؟! أليس علينا التدرب على صنع الرؤيا المستقبلية ، و وضع برنامج زمني لها ، لا أن نصفق للوحدة في المسيرات ، و قوانيننا وضعت منذ نصف قرن لتطبق على حدود جغرافية ضيقة . صحيح أننا نؤمن بالمثل بالقول ، و لا نضع آليات تطبيقها ميدانياً ، لأنها مأسورة للتاريخ ، و هذا التاريخ قدم لنا في صفحة بيضاء ليس فيها غير الأمجاد نتغنى بها. ما أسهل أن (نصنع) أغنية وطنية ، و لكن ما أصعب صنع سلاح ، لأن هذا يتطلب علماً و وقتاً و أسلوباً واقعياً ، و ليس هتافاً عاطفياً في المناسبات فقط. و هذا ما أردت توضيحه حول آراء أستاذنا رغم تحفظنا على بعض آرائه ، لكنه يظل من الرعيل الأول للغيورين على أمته ، و الأجرأ في نقده ، و هل تتحقق أمانيه و أمانينا في تقدم مجتمعنا ؟ و لعل التفاؤل بداية الطريق نحو كسب الحضارة كما قال !!

إدلب – فايز قوصرة
٢٨ / ١٢ / ٢٠٠٨
هـ ٠٩٣٢٩٤٨٠٨٩
٠٢٣ / ٢٣٨٤٤٤

المراجع :

حافظ الجمالي : حول المستقبل العربي . دمشق – ١٩٧٦ .

حافظ الجمالي : بين التخلف و الحضارة . دمشق – ١٩٧٨ .

مقالاته المنشورة في مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة و مجلة الموقف الأدبي و مجلة الدوحة و مجلة العربي و مجلة المعلم العربي و مجلة جيش الشعب و مجلة الفرسان الفكري و السياسي و مجلة الشبيبة و بعض الردود عليه في هذه المجلات و جريدة الثورة و جريدة البعث .

* *

صدر للمؤلف

١-الرحالة في محافظة إدلب الجزء الأول، حلب ١٩٨٥م.
٢-الرحالة في محافظة إدلب الجزء الثاني، حلب ١٩٨٨م.
٣-حصن شغر – بكاس (حطين الثانية).
٤-حارم دمشق الصغرى، ١٩٨٨ (نفد).
٥-قلب لوزة درة الكنائس السورية ١٩٩٥م، وآخر بالانكليزية.
٦- من إبلا إلى إدلب، ٢٠٠٤م.

٧-ولاية الفوعة –حلب ٢٠٠٨ م تم إنجازه ثانيةpdf
٨-التاريخ الأثري للأوابد العربية الإسلامية في محافظة إدلب، دمشق، وزارة الثقافة ٢٠٠٦.
(نفد).تم إنجازه ثانيةpdf
٩- الثورة العربية في الشمال السوري (ثورة إبراهيم هنانو)، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٨م.
(نفد). تم إنجازه ثانيةpdf
١٠- إدلب ... البلدة المنسية – دراسة تاريخية ميدانية. في ثلاثة مجلدات(منجزالأول في ٢٠١٩م) pdf منجز في ٢٠١٩م)
١١-الحلة السنية في الرحلة الشامية-رحلة محمد الكيالي ١٨١٦/ ١٨١٧م من تحقيقنا(منجز)pdf منجز في ٢٠١٩م)
١٢- أضواء جديدة في تاريخنا الأثري(دراسات في الحواضر السورية)pdf منجز في ٢٠١٩م)
١٣- شهبا في التاريخ الأثري(قيد الإخراج) pdf منجز في ٢٠١٩م)
١٤-آثارنا في لوحات فوغويه (منجز)pdf في ٢٠١٩م)
خطاب إلى أبناء إدلب (كتيب).
- وعي الزمن التاريخي-(منجز)pdf

وله قيد الإعداد :

من سلسلة الجولات:
جولة أثرية في جبل باريشا – محافظة ادلب (منجز).
جولة أثرية في جبل الأعلى – محافظة ادلب(قيد الإنجاز).
جولة أثرية في جبل الزاوية – محافظة إدلب (منجز).
جولة أثرية في جبل الحلقة وسهل الدانا- محافظة ادلب (منجز).
جولة أثرية في جبل الوسطاني - محافظة ادلب(قيد الإنجاز).
جولة في متحف ادلب (مخرج)
جولة في متحف أنطاكية(منجز).
جولة في متحف معرة النعمان (قيد الإخراج)
رحلة مع نهر بردى (قيد الإخراج)
رحلة تاريخية مع نهر العاصي(قيد الإخراج)
رحلة مع نهر قويق(قيد الإخراج)

عرب على عرش روما (قيد الإخراج)
إبلا في التاريخ الأثري(قيد الإخراج)
ملكات عربيات-(قيد الإخراج)
دافني في التاريخ الأثري(قيد الإخراج)
لقمان في وصاياه وحكمه (قيد الإخراج)

د ليل أسماء مدن ،وقرى محا فظة ادلب (قيد الإعداد)
مملكة أرواد الفينيقية (قيد الإخراج)
حواضر بلاد الشام في أقدم الصور(قيد الإخراج)
جولة في متحف أنطاكية(قيد الإخراج)
عجائب مريم—تحقيق مخطوطة
صحائف سوداء،وبيضاء (مذكرات فايز قوصرة)
*